من البراعم إلى الحلم- خطوات النجاح الأولى

د. خير شواهين

في ظلّ الطبيعة العذراء، وبين رائحة التراب بعد المطر وصوت العصافير عند الفجر، وُلدت البذور الأولى للحلم. لم تكن طفولة الكاتب عادية، بل كانت معملًا صغيرًا للتجربة والاكتشاف، ومدرسة يتعلّم فيها من الضوء والريح والطيور كيف يفهم الحياة. في هذا الكتاب، يعود الدكتور خير شواهين إلى محطات من طفولته وشبابه، إلى القصص البسيطة التي صنعت منه مخترعًا وأديبًا ومعلّمًا. يرويها بعفويةٍ صادقة، ليؤكد أن الإبداع لا يبدأ في المختبرات ولا في القاعات الكبرى، بل في قلب الطفل الذي يرى في كل شيء سرًّا يستحق الاكتشاف.

إنه كتاب عن البدايات التي أنبتت الحلم، وعن خطوات النجاح الأولى التي ما زالت تضيء طريق كل باحث عن شغفٍ ومعنى.

هذا الكتاب الرقمي يأخذ القارئ في رحلة عبر ذكريات طفولة نمت في حضن الطبيعة البكر، حيث كانت الأرض غنية وسخية، والحقول والسنابل جزءًا من حياتنا اليومية.
يتناول الكتاب قصصًا حقيقية عن قمحنا الذي أطعمتنا الأرض، وعن الأشجار المثمرة التي زرعناها بيدينا وتعلّمنا من خلالها الصبر والحب.
يستحضر الكتاب أجواء اللعب بين الأغنام، والليل تحت بيت الشعر، ورائحة المطر على التراب بعد الحصاد، ليعيد للذاكرة بساطة وسحر الأيام القديمة.
يحكي أيضًا عن البركة والكرم الذي كنا نتعلمه من الهدايا الصغيرة التي تمنحها الطبيعة بلا مقابل، وعن اللحظات التي كانت تربطنا بالأرض أكثر من أي وقت آخر.
الكتاب يمزج بين الحنين والشعور بالامتنان للطبيعة، وبين التأمل في ما فقدناه من بساطة وصدق، ليحفّز القارئ على العودة إلى الجذور وإعادة الاتصال بالطبيعة.
إنه دعوة لاستنشاق عبق الماضي، لتذكّر أن الطبيعة ليست مجرد أرض، بل حضن يعطينا الدروس والقيم والفرح الحقيقي الذي لا يقدر بثمن.

أحيانًا، أكتب عن الماضي لأتذكّره، بل لأوقظ شيئًا نائمًا فينا جميعًا.
أكتب عن الحقول، عن الغروب فوق سطح المدرسة القديمة، عن رائحة التراب بعد المطر، عن وجوه عبرت أعمارنا وتركَت أثرها دون أن تدري.
أكتب عن أول نظرة، وأول ارتباك، وأول مرة فهمنا فيها أن الحياة ليست دروسًا فقط، بل رعشة قلب، وضوء في العين، وسرّ صغير نحمله معنا إلى الكِبر.
ربما نحن لا نشتاق إلى المكان، بل إلى النسخة البريئة منّا التي كانت هناك.
ولهذا، حين أروي تلك الحكايات، لا أكون كاتبًا- بل مرآة صغيرة يرى كلٌّ منا فيها نفسه كما كان -أو كما كان يتمنى أن يكون.

اليوم أول رشة مطر

الأولاد الكبار صاروا يركضوا كأنهم في فيلم أكشن.. خائفين على تسريحة الشعر وجلّ المطري.

أما أيامنا، كنا في الصفوف الدنيا ,نمشي سعداء لكيلومترات تحت المطر عائدين من المدرسة ,ولا نركض، بملابسنا البسيطة وأحذيتنا البلاستيك اللي تصدر موسيقى مع كل خطوة ..

ونغني من القلب:

"شتي يا دنيا شتي على قرعة جدي.. بكرة بطلعوا الشعرات وتفرح ستي☔ "!

يمكن ما طلعوا الشعرات- بس طلعنا نحن، جيل المطر الحقيقي 💙

🌿ذكريات في الطريق إلى البيت 🌿

ونحن صغار- لم نكن نحتاج إلى مطاعم أو وجبات جاهزة، كنا نشبع من الطريق نفسه.

في عودتنا من المدرسة، كنا نضحك ونتسابق على الحجارة الصغيرة، ونمد أيدينا نحو خيرات الأرض.

كانت الطرق ترابية ناعمة، لا سيارات ولا ضجيج، فقط نسيم الصباح وأصوات العصافير.

كنا نعرف مواسم النباتات البرية كما يعرف المزارع أرضه:
في الشتاء نجد الشومر برائحته التي تملأ المكان،
وفي الربيع نقتطف المرار، ونضحك حين يتحدانا أحدنا على تحمّل طعم القشرة المرة!
وساق العروس كانت زادنا الأخضر الجميل، نأكلها كأننا نكتشفها كل يوم من جديد.
أحيانًا نُصادف »ركبة الجمل« أو " قرعة جدّي", وما أطيب سيقانها الطويلة,
وتكون فرحتنا أكثر لو وجدنا فطرًا خرج لتوه من الأرض،
فنشعر وكأننا وجدنا كنزًا لا يعرفه أحد غيرنا.
أما الخرفيش والسناريا اللذيذة جدا، كنا نتغلب على شوكها بالعصا.
كنا نأكل ونغني ونحمل دفاترنا الصغيرة كأنها أسرار العالم.
كانت الأرض أمّنا الثانية، تطعمنا من غير مقابل.
كل نبتة كانت درسًا في الكرم، وكل خطوة كانت مغامرة.
لم نكن نعرف حينها أن تلك اللحظات البسيطة هي أغلى وليمة في حياتنا.
اليوم حين أرى أطفال المدن، بوجباتهم المغلفة وشاشاتهم الصغيرة،
أتمنى لو ذاقوا مرة واحدة طعم الشومر من يد الندى،
وشبعوا كما شبعنا نحن... من عافية الأرض وصدق الطفولة .

🌼عرّافتنا الصغيرة.. زهور الأقحوان 🌼

ونحن صغار، كانت الدنيا أوسع من قريتنا الصغيرة، وأجمل من كل خرائط الكبار. كنا نلهو بين الحقول الخضراء والزهور البرية التي تتمايل في الريح كأنها تضحك معنا. لم نكن نعرف معنى الغد، لكننا كنا نحلم به كل يوم على طريقتنا البسيطة.

كان لكل واحد منا أسئلته الخاصة:

هل سأنجح في المدرسة؟

هل تحبني فلانة ذات الجديلتين؟

هل سيكون غداءنا دجاجًا اليوم؟
وهل سيعود أبي من المدينة ومعه علبة هريسة كما وعد؟
كنا نبحث عن الإجابات في الطبيعة من حولنا، لا في الكتب ولا في الأخبار.
وكانت عرّافتنا - بكل ثقة الطفولة - زهرة الأقحوان الصفراء.
نمسكها بحذر، نبدأ بقطف بتلاتها واحدة تلو الأخرى:
تحبني... لا تحبني...
تحبني... لا تحبني...
حتى تبقى بتلة أخيرة، نرفعها بابتسامة، ونصدّقها مهما قالت.
كانت تلك البتلة الأخيرة بالنسبة لنا حُكم القدر.
لم نكن نعرف أن الحياة ستكبر وتصبح أعقد من زهرة أقحوان، وأن الحظ لن يأتي دوماً بوردة بين الأصابع، بل بجهد ودمعة وابتسامة.
لكننا كنا نؤمن أن الكون يسمعنا ونحن نضحك في الحقول، وأن الريح كانت تنقل أمنياتنا . والسماء تسمع همساتنا.
اليوم، حين أمرّ بتلك الحقول، أجد بعض الأقحوان يبتسم لي من بعيد،
كأنه يقول:
ما زلنا هنا... نحرس طفولتكم الضاحكة، وأحلامكم الصغيرة التي لم تكبر بعد .

كنا صغارًا، نذهب كل صباح إلى المدرسة والهواء النقي يملأ صدورنا. كانت المدرسة مختلفة عن أي مكان آخر، فهي لم تكن مجرد جدران وغرف، بل حديقة كبيرة تتنفس بالحياة. أحيانًا كانت الحديقة على تلة خضراء، تحيط بها أشجار البساتين، وتتخللها مجاري مياه صغيرة تلمع تحت أشعة الشمس، وكأنها لآلئ صغيرة على بساط أخضر. في الأيام المشمسة واللطيفة، كان المعلمون يبتسمون ويقررون أن نحمل دفاترنا وأقلامنا إلى الطبيعة. نجلس بين الورود، ونسجل الدروس ونحن نشم عبير الزهور، ونستمع إلى تغريد العصافير. كانت الحصص تصبح مغامرة صغيرة؛ كل شجرة كانت تهمس لنا بسرها، وكل نسيم يحمل لنا حكاية جديدة.

كنا نركض بين العشب، نلعب ونتعلم في الوقت نفسه، وكأن المدرسة قد تحولت إلى عالم سحري خاص بنا. أحيانًا، كنا نستلقي على سفح التلة، نحدق في السماء ونرسم أشكال الغيوم، نحلم ونحكي قصصنا، ونشعر بأن كل شيء ممكن.

هذه الحصص لم تكن مجرد تعليم، بل كانت ذكريات محفورة في القلب، تذكرنا بأن التعلم يمكن أن يكون ممتعًا، وأن الطبيعة صديقة للأطفال، وأن أحلامنا تبدأ دائمًا من مكان جميل وهادئ، حيث تنمو أفكارنا مثل الزهور في الحديقة.

الحياة مع الطيور

في طفولتي، كانت الطيور جزءًا من يومنا كما كان النسيم والماء والضياء. كنا نعرفها جميعًا بأصواتها قبل أن نراها، فصوت الحمام من بعيد يعني أن الهدوء قادم، وصوت البلابل بين شجيرات الموز يبشّر بصباح ناعم كأنفاس الندى.

كنا نميّز أعشاشها كما نعرف بيوتنا، فهناك عش القبرة المخفي بين أعشاب الأرض، وعش الدوري في جدار طيني قديم، وبيوت السنونو الطينية تزيّن زوايا الأسقف كأنها حكايات صامتة من طين وحنين، وعش الحمام الذي يتكون من عيدان مبعثرة على شجرة عالية، وعش البلبل في شجيرات الموز.

وكنا نعرف كل طير من رؤية بيضه، ونعرف الطيور المهاجرة مثل ابو سعد الأبيض الكبير، وعصفور الذعرة الذي يأتي في الشتاء، كنا نسميه قرقسّة، كنا نشعر بالبركة عندما نرى الهدهد، ونكره صوت الغراب .

كنا نعرف ما يأكله كل طير، وأين نجد طعامه، فلصيد البليقي بالفخ نبحث عن الديدان في أسواق نبات المكانس، والبلابل تحب ثمار التوت، والموز، والدوري لا يقاوم فتات الخبز اليابس، والحسون يحب بذور نبات الخرفيش .

كنا نعرفها فردًا فردًا، ونعرف سلوكها: أيّها يقترب من الإنسان، وأيّها يفرّ عند أول حركة. كنا نعرف كيف تُصاد – لا بقسوة، بل بذكاء الطفل الذي يختبر الحيلة أكثر مما يريد الصيد.

كانت تلك معرفة فطرية، ثقافة الطبيعة التي لا تُعلَّم في المدارس. كنّا نحيا مع الطيور لا حولها، نشاركها الفصول، نقرأ في أجنحتها أخبار المطر، ونحسّ أن الكون منسوج من خيوط خفيفة تربط الإنسان بكل حيٍّ على الأرض.

أما اليوم، فقد صارت الطيور تُرى من خلف زجاج النوافذ، وصارت أصواتها تسجّل في مقاطع قصيرة لا تحمل دفء الحكاية ولا رائحة الطفولة. كم كانت تلك الأيام بسيطة، وكم كانت غنية بأسرارٍ لا تُدرّس، لكنها تُحسّ بقلب الطفل حين يرفع رأسه نحو السماء، ويبتسم لطائرٍ يعرفه منذ زمان.

طفولتنا وروزنامة الطبيعة 🌿🕊️
كانت طفولتنا تمشي على إيقاع الطبيعة، لا على صوت ساعةٍ أو منبّهٍ، بل على مواعيدٍ تحفظها الأرضُ والسماءُ والنسيم. كنا نسكن في بيوت الطين المتناثرة بين البساتين، حيث لكل غرفة حكاية ورائحة، ولكل زاوية روحها الخاصة. هناك في أقصى الساحة كانت غرفة موقد الخبز، ينبعث منها الدخان الأبيض كل صباح كأنها تُخبر العصافير أن الخبز قيد الولادة. بجانبها غرفة التبن والحطب، وغرفة الحيوانات التي نعرف أصواتها فردًا فردًا – البغلة الصبورة، الحمار العنيد، والبقرات الحنونات اللاتي يملأن الفجر بخوارٍ دافئ. والخراف التي نسمنها للعيد.
قرب تلك الغرف، كانت عشة الدجاج تصيح بحيوية الحياة، والأرانب في بيوتها الهادئة تتحرك بخفة كأنها نسمات من ربيعٍ دائم. وتحت الشجرة الكبيرة خلايا النحل البلدية، تعمل بلا ضجيج، وكأنها تعلّمنا أن أجمل ما يُنتَج في الدنيا يصنعه الصمت والمثابرة.

في تلك الأيام، لم تكن الطبيعة مجرد خلفية لحياتنا، بل كانت روزنامتنا الحقيقية. من تفتح زهر اللوز عرفنا قرب الربيع، ومن اختفاء الضفادع علمنا أن البرد قادم، ومن هجرة الطيور أدركنا تبدّل المواسم. كنا نتابع مراحل نمو الضفادع في البرك، وننتظر موسم الفراشات كمن ينتظر العيد. كانت الفراشات تملأ الدنيا بألوانها كأنها قصاصات من الحلم تطير في الهواء.

لم نكن نحتاج إلى تقويمٍ على الجدار، فكل شيء من حولنا كان يخبرنا بالوقت: دفء الشمس، وندى الصباح، ونغمة السنونو، وتعب البغلة بعد يومٍ طويل. كانت الحياة بسيطة، لكنها ممتلئة بالدهشة. كنا نعيش كل فصلٍ وكأنه حكايةٌ جديدة من كتاب الطفولة الجميل، حيث الطبيعة هي المعلم الأول، والحياة هي الصفّ الكبير، ونحن تلاميذها المندهشون الذين لا يكبرون أبدًا🌸 .

من قصص طفولتي.. الحقيقية

في طفولتي، كان بيتُ أخوالي بيتَ خيرٍ وعزّ، تفتح أبوابه في الصباح كأنها تستقبل الفرح. كان الصيف عندهم موسمًا للحياة، تمتزج فيه رائحة القمح الناضج بصوت العصافير، ودفء الشمس بلعب الأطفال .

هناك، على البيادر الواسعة، كنّا نلهو حفاة، نركض فوق التبن الذهبي الذي يلمع كأنه حُقول من ذهب. وكان لكل محصول بيدره الخاص: للقمح بيدر، وللشعير بيدر، وللعدس والفول والحمص والحلبة بيادر أخرى، كأن الأرض ترتدي أثوابًا متعددة الألوان والروائح.

وكانت متعتنا الكبرى أن يسمحوا لنا بالركوب على لوح »الدّراس« وهو يدور فوق البيدر. كنا نتمسك به بفرح، والريح تعبث بشعورنا، بينما الحمار أو الحصان يدور بهدوءٍ كأنهما يعلمان أننا نعيش لحظة من الحلم. ذلك اللوح الخشبي، المثبت في أسفله قطع حادة من حجر الصوّان، كان أداة بسيطة، لكنه بالنسبة لنا أشبه بمركبةٍ سحرية تطير بنا في فضاء الطفولة.

وعندما تغيب الشمس، كانت رائحة القمح المطحون تمتزج بدخان النار التي يشعلها جدي، فيجلس بجانبه فقراء الحيّ الذين يطعمهم بكرمٍ لا يعرف المنّة. كنت أراه يوزّع الخبز واللبن كما يوزّع القمر نوره على البيادر. وكان صوته، وهو يضحك ويدعو لنا بالبركة، يجعلني أشعر أن الدنيا بخير.

تلك الأيام كانت بسيطة، لكنها كانت غنية بكل ما يجعل القلب ممتلئًا بالطمأنينة: صدق الناس، دفء العائلة، وبهجة الأرض حين تثمر. كنّا ننام على أسطح الطين، نعدّ النجوم ونتسابق من يسبق إلى النوم، بينما يهمس البيدر المجاور بحكاياته القديمة في أذن الليل... حكاياتٍ تشبه الطفولة نفسها، بريئة، حلوة، لا تُنسى.

ترانيم الحليب

في صباحات الصف الأول، كنت أستيقظ على أنغام أصوات الطبيعة، وصوت أمي وهي تصبّ الحليب المغلي في القدر النحاسي الكبير، فيفوح عبيره في أرجاء البيت الطيني الصغير. كانت قد حلبت البقرة عند الفجر، بينما الدخان الأزرق يتصاعد من نار الحطب المشتعلة تحت القدر في فناء البيت، وكأن البيت كلّه يستحمّ في رائحة الدفء والحنان.

كنت أشرب كوبًا من ذلك الحليب الأبيض الدافئ، وكأنني أبتلع دفء الحياة نفسها قبل أن أذهب إلى المدرسة.

ثم تبدأ مراحل السحر اليومي- حين تتحول قطرات الحليب إلى لبن، ثم إلى زبدة تلمع بلون الشمس، ولبنة بيضاء ناعمة تحفظ في الجرار ككنزٍ لا يقدّر بثمن. أكثر ما كنا نحبّه هو لحظة خضّ اللبن في "الشكوة" الجلدية، حيث كنا نلتفّ حول أمي نراقبها وهي تهزّها بقوةٍ

وإيقاعٍ كأنها تعزف لحنًا ريفيًا قديماً، وتتصاعد الرغوة شيئًا فشيئًا، معلنةً ميلاد الزبدة الدافئة التي تُقدَّم مع خبز القمح الساخن الخارج لتوّه من التنور.

وحين كانت الجارات يتبادلن وصفات الجبنة أو يجرّبن طرقًا جديدة لتصفية اللبن، كان الهواء نفسه يعبق برائحة الطفولة. أما لبن عنزات عمّتي فكان له سرّ خاص؛ تحفظه في قربة صغيرة من جلد الماعز وتعلّقها في الظل، فيبقى بارداً في أيام الصيف اللاهبة، خفيفاً كالماء، لذيذاً كنسمة ناعمة على وجه الأرض.

تلك الأيام ما زالت تعيش في ذاكرتي مثل أغنيةٍ من حليبٍ ودفءٍ وتراب، ترنيمة بيضاء ، لا تنتهي مهما ابتعدنا عن البيدر وعن قدور النحاس، لأنها محفورة فينا مثل طعم اللبن الأول في فجر الحياة.

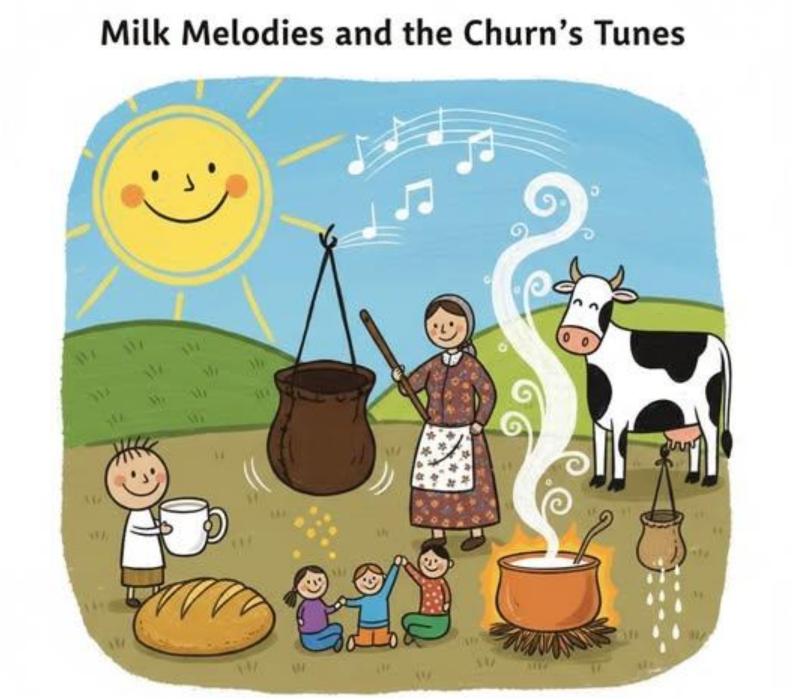

🌸 أنا وأسماء ودلو الحطب- من طفولتي الحقيقية

في ذلك التجمع الصغير الذي يسكن فيه أخوالي، كان كل شيء يبدو وكأنه قطعة من الحلم.

فوق البيوت تمتد تلال خضراء تفوح منها رائحة الزعتر البري والعكوب واللوف، نباتات كنا نعرفها كما نعرف وجوهنا، بعضها نأكله، وبعضها نغليه دواءً للبرد والمعدة .

وتحت تلك التلال يجري ماء صافٍ كأنّه خيط من الزجاج، يروي المزارع الصغيرة المليئة بأشجار الحمضيات والنخيل، التي تلمع أوراقها تحت شمس الصباح مثل ذهب رطب, والتي منها مزرعتنا..

في أحد الأيام، قالت أمّ أسماء لنا بصوتها الحنون:

"خذوا هذا الدلو، واجمعوا بعض الحطب الصغير ومخلّفات الأغنام الجافة لنشعل بها النار و نخبز عليها الخبز".

أخذنا الدلو، أنا وأسماء، التي كانت تعني لي الكثير في ذلك الوقت ,وخرجنا بخطوات متناسقة كأننا نسير على موسيقى خفية. كانت الأرض ناعمة، والعشب يلامس أطراف أقدامنا برقة، والهواء يحمل رائحة الزعتر والخبز الطازج من بعيد.

لم يكن في الأفق أحد...

كأن العالم كلّه غاب، وبقيت أنا وأسماء فقط، نجمع قطع الحطب ونضحك كلما وجدنا واحدة غريبة الشكل .

كنت أنظر إليها بين حين وآخر، فتبدو لي أجمل من كل شيء حولنا، حتى من تلك التلال المكسوّة بالربيع.

كانت تغني أحيانًا بصوتها الطفولي الرقيق، فأشعر أن الطيور تصمت لتستمع.

كنت سعيدًا بطريقة لا أستطيع شرحها الآن، فقط لأنني كنت معها، نحمل الدلو نفسه، ونمشي في الطبيعة نفسها، ونتقاسم الظلّ والشمس والحكاية.

وحين امتلأ الدلو وعدنا إلى البيت، كانت أمهاتنا في انتظارنا، تجهّزان الموقد، والدخان يتصاعد برائحة الخبز والدفء.
جلستُ بجانب النار وأنا أراقب اللهب يرقص، وأتذكّر طريقنا الطويل بين الزعتر والعكوب، وأقول في نفسي:
ما أجمل أن تكون السعادة أحيانًا في دلو صغير- نحمله مع من نحبّ.

ذكريات راعي العجال- ولبن المساء
في أيام القرية الهادئة، كان لصوت الأجراس المعلقة في أعناق الأبقار نغمة يعرفها الجميع، نغمة العودة بعد يوم من الرعي الطويل. لم تكن في القرية بقالة تبيع الحليب أو الألبان،

لأن كل بيت كان يملك بقرة أو نعجة، تفيض خيرًا كل صباح ومساء. أما من لم يكن له نصيب في بقرة، فله نصيب في كرم الجيران، فالحليب كان يُقاس بالمحبة لا بالنقود.
وكانت وظيفة راعي العجال من أجمل المظاهر الريفية؛ يجوب الأزقة مع الصباح، يصفر أو ينادي، فتخرج الأبقار واحدة تلو الأخرى من البيوت، تتجمع كأنها تعرف طريقها أكثر من البشر، ثم تسير خلفه نحو المراعي الخضراء. ومع غروب الشمس، يعود القطيع والغبار الذهبي يرقص حوله، وتتهيأ النساء بحيويتهن المعهودة لحلب الأبقار وتهيئة اللبن واللبنة والزبدة.
أتذكر راعي الغنم صديقنا الذي كان يمر بجانب مزرعتنا كل مساء، يلوّح لي بعصاه ويقول: "هات يا خير وعاء، نحلب لكم شوية حليب طازج". كنت أسرع لأحضر الوعاء وأرقب قطرات الحليب الساخنة تنزل في الإناء، وكأنها نهر من الطفولة البيضاء.
كانت تلك الأيام بسيطة، لكنها مشبعة بالطمأنينة والكرم والعلاقات الصافية، أيام كان اللبن من تعب الأيادي، وكانت النكهة من صفاء القلوب.

الزمن الكريم

قبل استخدام المبيدات..

في طفولتي، كان عدد الناس قليلاً، والطبيعة كثيرة... وكأن الأرض لم تزل في فجرها الأول. الحقول تمتد بلا سياج، والسماء تمطر كرمًا بلا حساب، والطيور تملأ الأفق . كان أبي صيادًا ماهرًا، يعرف مواسم الطير كما يعرف مواسم القمح، ويقرأ الريح كما يقرأ الفلاح وجه الغيم.

في الصيف، حين تُحصد سنابل القمح وتبقى الأرض عارية تصفرّ تحت الشمس، كانت أسراب الحمام البريّ تملأ السماء فوق الحقول، تحلّق وتدور في سكونٍ مهيب، حتى يُخيّل إليّ أن الهواء نفسه له أجنحة .

وفي الشتاء، كان يأتي طائر أصغر من الدجاج بقليل، لونه أصفر ذهبي يلمع كحبة قمح جديدة، نسميه »سبتّة«. كان أبي يخرج ببندقيته القديمة ذات الخرطوش، ويعود سريعًا بما رزقه الله، فالخير كان قريبًا، لا يحتاج إلى مشقة ولا انتظار.

كنا نأكل من الصيد أكثر مما نشتري، وكان اللحم الذي يأتي من يد أبي طريًّا، دافئًا، ممتلئًا بمذاق الغابات والحقول. لم نكن نعرف شيئًا اسمه »وجبة فاخرة«، لأن كل ما في حياتنا كان فاخراً ببساطته، نأكل ما تصطاده الأيادي وتباركه الأرض.

كان نهر الأردن وقتها عريضًا غزير الماء، نظيفًا كالمرآة، تُرى فيه الأسماك كأنها حروف تسبح في قصة شاعرية. كانت القوارب صغيرة من خشبٍ محلي، وصوت المجاديف ينساب كأن النهر نفسه يتنفس. السمك وفير، والبطّ أرخص من الخبز، حتى إن الناس كانوا يأخذون صدره ويتركون الباقي للكلاب، وكأن الكرم لم يكن في الناس وحدهم بل في الطبيعة أيضًا.

أحنّ إلى ذلك الزمن الكريم... زمنٍ كان فيه القليل يغني عن الكثير، والبركة تملأ الوجوه والقلوب والماء. كانت الطيور تعرف بيوتنا، والنهر يعرف أسماءنا، والريح تمرّ على الحقول كما تمرّ على صفحة كتابٍ مفتوح.

الآن تغيّر كل شيء. الناس كثروا، والطبيعة قلّت، والنهر اختنق بالملوثات ، ولم يعد الحمام يملأ السماء، بل الغربان. حتى الصمت الذي كان يسكن المساء، صار غريبًا عنا. أشتاق لذاك الزمن لا لأن طفولتي كانت فيه، بل لأن الكرم كان لغة الأرض والإنسان معًا. كان الخير يأتي بلا إعلان، والطبيعة تهب بلا شروط. واليوم... نحيا في زمنٍ كثيرٌ فيه من كل شيء، إلا البركة.

حلم العودة إلى الهدايا المباركة-المنوحة- والطبيعة الأصيلة

في طفولتنا، كانت الهدايا تنبض بالحياة، لا تُشترى من الأسواق ولا تُغلّف بورق لامع، بل تُقدَّم بيدٍ طيبة وقلبٍ عامر بالمحبة. كانت هدية العمِّ شتلة تُزرع في التراب، فتكبر وتثمر، ويكبر معها شعور الفرح والانتماء. وكانت »المنوحة« بقرةً تُعطى بلا ثمن، تحمل في ضرعها الخير والبركة، وتبقي في النفوس أثرًا من كرم الزمان القديم.

في تلك الأيام، لم يكن الناس يقيسون قيمة الهدايا بالمال، بل بما تُنبت من خير وما تترك من أثر. كانت شتلة البامية أو شجرة الرمان رسالة حبٍّ تمتد جذورها في الأرض

وفروعها في السماء. وعندما يأتي الموسم، ويُخبرك أحدهم أنه أكل من ثمر شجرتك، تشعر أنك شاركته في طعامه دون أن تكون حاضرًا. كان الخير ينتقل من يدٍ إلى يد، ومن أرضٍ إلى أرض، في دورة حياة لا تنقطع.

..

في طفولتي المبكرة كان عمّي محمّد وزوجته يزرعان حقلا في مزرعتنا, نادتني زوجة أبي, رحمهم الله جميعا, وأعطتني بعض حبوب الحمّص وقالت لي: إذهب إلى عمّك ليزرع لك مساحة من الحمّص.

وفعلا, أخذت الحمص وأسرعت إليه, وزرعه لي.

ومرّة عمل في بيتنا في بناء خزان ماء كهل من القرية, ويوم تصفية الحساب, قال:

زرعت لكم قطعة الفلانية بالباميا, وهي قريبة من بيتنا, وكنت الأسرع وصولا إليها.

أبي إذا زاد عدد البقر لديه,. يبقي واحدة ويوزّع الباقي على عمّاله يستفيدوا منها,.

وكانت تسمّى منوحة, لأنها تمنح الخير مجانا,

أيضا كنا لفترة قريبة نهدي بعضنا أشجارا مميزة جاهزة للزراعة, وكم نسعد عندما يخبرنا أنه يأكل من ثمرها..

اليوم تغيّرت الدنيا. صارت الهدايا أشياء تلمع لكنها لا تنبض. نستبدل زرع الحمّص بعطورٍ باهظة، ونسينا أن أجمل العطور هي رائحة التراب بعد المطر. نسينا أن الهدية ليست ما يُغنينا لحظة، بل ما يُغذينا عمرًا.

أحنّ إلى تلك الأيام حين كانت الأرض أمًّا ثانية، نغرس فيها حبًّا فتعيده إلينا سنابل وفرحًا. أحنّ إلى المزارع الصغيرة التي كانت تجمع القلوب كما تجمع الغلال، وإلى الأصوات التي تنادي عبر الحقول لا عبر الهواتف.

أحلم أن نعود إلى تلك البساطة، إلى أن نهدي بعضنا شجرة زيتون، أو نزرع حديقة لجارٍ جديد، أو نمنح طفلًا كيس حبوب ليزرعه ويتعلم كيف يكبر الخير بالصبر. أحلم أن

نستعيد ثقافة »المنوحة« لا في الماشية فحسب، بل في الكلمة الطيبة، والوقت، والمعرفة، والابتسامة.

فالعودة إلى الطبيعة ليست رجوعًا إلى الوراء، بل رجوعًا إلى الأصل. إلى لحظة كان الإنسان فيها جزءًا من الأرض لا سيّدًا عليها، وشريكًا في عطائها لا مستهلكًا لجمالها. تلك العودة حلم، لكنها حلمٌ يستحق أن يُسقى كما سُقي الحمص القديم الذي زرعه العمّ في تراب المزرعة –حمصٌ أنبت حبًّا لا يُنسى🌿 .

قمحُنا الذي نحب 🌾

كان قمحُنا أكثر من زرعٍ في الأرض، كان روحًا تمتدّ من يد أبي إلى قلوبنا. حتى آخر عامٍ في حياته، ظلّت الأرضُ تُنبت القمح كما تنبت الذكرى الطيبة. كنا نأكل من غلّتنا، من تعبنا، من عرقٍ يعرف طعم التراب ورائحته. وما زلت أذكر تلك الحصّادة الكبيرة وهي

تلتهم السنابل في صوتٍ يشبه النشيد، ثم تلفظ أكياسًا ممتلئة بالحبوب الذهبية- كنت أشعر وقتها أن الحصاد عيد، وأن القمح ليس نباتًا فحسب، بل بركة تسري في كل بيت. وبعد الحصاد، كان أبي يفتح الحقل للبدو، يدخلون بأغنامهم لترعى البقايا، وأدخل معهم، ألعب بالأغنام، وأجري وراءها في الغروب. في إحدى الليالي، نِمتُ في بيت شعرٍ معهم تحت قمرٍ صيفيٍّ هادئ، نسائمُه ناعمة، ونجومه قريبة كأنها حبات قمحٍ في السماء. تلك الليلة علّمتني أن البساطة لا تحتاج بيتًا من حجر، بل قلبًا مرتاحًا ورائحة ترابٍ بعد حصاد.

في البيت، كانت النساء يبدأن غربلة القمح، والغبار الذهبي يتطاير كغيمةٍ من فرحٍ قديم. نستنجد أحيانًا بنساءٍ من القرية بالأجر، وكانت ضحكاتهن تمتزج بصوت الغربال كأنها موسيقى العمل الشريف. ثم يُؤخذ القمح إلى المطحنة، وهناك تبدأ رحلة الرغيف الذي سيُشبعنا من تعبنا نحن، لا من تعب المصانع.

كان القمحُ لنا كل شيء: خبزُنا اليومي، و"القلية" المقلية لتسلية المساء، و"القمح المسلوق" سناكنا الريفيّ البريء، وطعام البرغل الذي لا تخلو منه موائدنا. كان قمحًا طبيعيًا، لم تعبث به المختبرات، ولم تُفسده يد الطمع. قمحًا يحمل في حباته رائحة الأب وكرم الأرض ونقاء المطر.

لكن حين مات أبي، توقّف القمح. زرع إخوتي الأشجار مكانه، وكأنهم زرعوا الصمت. صرنا نشتري خبزًا بلا روح، بلا نكهة، بلا ذاكرة. خبزًا يخرّب الأسنان والمعدة، ويؤذي الكبد والحنين. أصبحنا نأكل، لا لنعيش كما كنا، بل لنملأ فراغًا اسمه "القمح الذي غاب."

أحيانًا، أشتاق إلى ذلك القمح كما أشتاق إلى أبي. أشتاق لرائحة السنابل في الهجير، لصوت الحصادة وهي تغني مع الريح، ولرغيفٍ خرج من تنّورنا الطيني في صباحٍ كان أبي فيه ما يزال حيًا.

لقد كان قمحُنا الذي نحبّ طيّبًا، لأن من زرعه كان طيّبًا.

لم نكن نعرف الخوف.

بعد حرب 1967 هاجرنا من مزرعتنا القريبة من الحدود إلى قرية أبعد قليلاً، ولكننا في العطلة الصيفية كنا نعود إلى المزرعة، حيث يقضي والدي معظم أيامه. كانت الحرب ما تزال مشتعلة، لكننا لم نكن نعبأ بها كثيراً، فقلوب الأطفال لا تفهم معنى الخطر كما يفهمه الكبار.

كنا نسرح في السهول والحقول، نصطاد العصافير، ونجمع ثمار الدوم من أشجار السدر التي تحرس أطراف المزارع، ونضحك من أبسط الأشياء وكأن الدنيا وُجدت لأجلنا.

وحين يقترب المغيب، يغادر العمال وأصحاب المزارع إلى قراهم التي نزحوا إليها، وتخلو الأرض إلا منّا ومن أبي. ننام عند بيدر القمح قرب البئر، لا أسوار تحمينا سوى السكون، ولا حراسة غير السماء. بجانبنا تمرّ قناة الماء، يخرّ خريرها كأنها تهدهدنا للنوم،

وتملأ الضفادع المكان بنقيقها الذي يصبح موسيقى الليل بعد أن تصمت الطيور وتختبئ الثعالب.

كنا نتعشى بما اصطدناه، وإن كان قليلاً فهو كافٍ ليشبع أرواحنا قبل بطوننا.

ننام بأمان غريب، كأننا في قلب الجنة لا في زمن الحرب. لا نخاف من الأفاعي، ولا من الطائرات التي تمرّ أحياناً، ولا من اللصوص الذين لم يجرؤوا يوماً على الاقتراب. حتى كلبتنا كانت تأتي أحياناً مع جرائها لتنام قربنا طلباً للرفقة.

وفي البعد، نسمع صوت قريبنا جمال من المزرعة المجاورة، يناديه أبي بصوت مرتفع عندما يحين دوره في الري، فيردّ من الظلام وكأننا في عالمنا الصغير المحاط بالخطر والسكينة معاً.

هكذا كانت طفولتنا– شغفًا بريئًا ينتصر على الخوف، وسلامًا يولد من رحم الحرب.

كتبه نسختي الرقمية

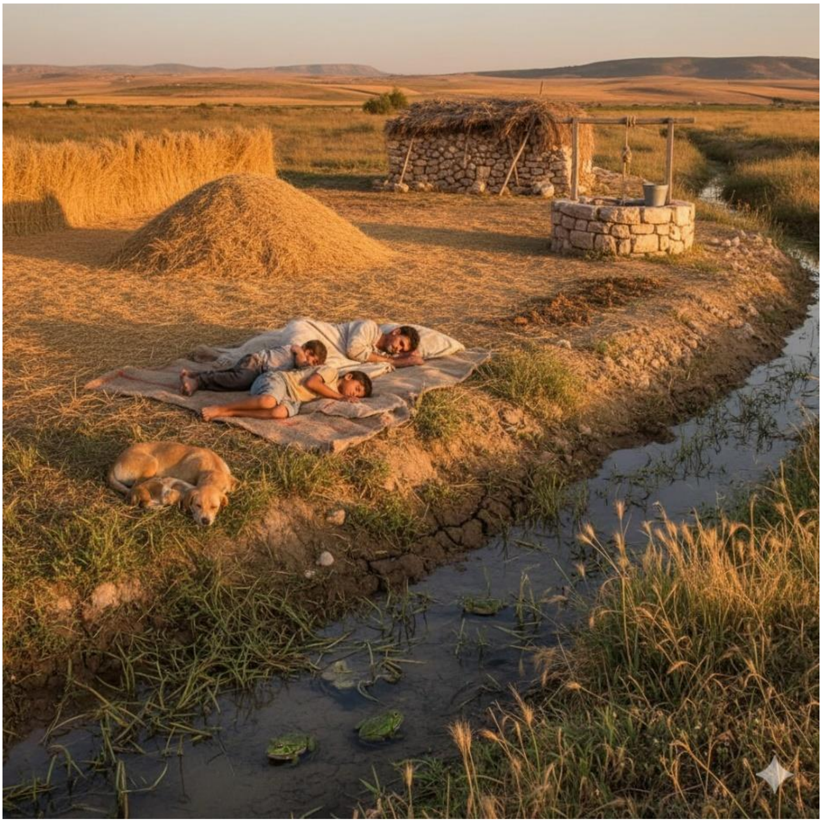

🌧️الفطر.. هدية العواصف 🍄

بعد ليلة ماطرة عاصفة، حين تقصف الرعود وتبرق السماء كأنها تلتقط صورًا للأرض، كان الفطر يولد!

تُثبّت البروق نيتروجين الجو وتغمر التربة بسمادها الطبيعي النقي، فينبت الفطر صامتًا لا يصنع طعامه مثل النبات، بل يتغذى من سرّ المطر والطين.

ننتظر يومًا أو اثنين حتى تجف الأرض قليلًا، ثم نخرج حفاةً أو شبه حفاة، نغوص في الطين، نضحك، ونتنافس في من يجد القمع الأول 🍄.

وما إن نجد واحدًا حتى نعرف أن الآخر قريب، فالفطر لا يحب الوحدة... هي دائما أزواج.

كنا نعرف الفطر السام ونسميه فطر الحية ..ولا نقرب إليه.

نحمل الغنيمة في قمصاننا المرفوعة، ونعود وأقدامنا تلمع بالطين، والقلوب تلمع بالفرح.

وإذا كانت الكمية قليلة، نضيف بعض البطاطا ليكمل الطبق.

أما من في قلبه »بنت الجيران« فله طريقة أخرى: يمر من أمام بيتها أولًا، يتظاهر بالكرم، لكنه في الحقيقة يقدّم لها قطعة من قلبه مغلفة برائحة الفطر والمطر 💕.

الميرندا الباردة وبداية الرومانسية الساخنة

في المرحلة الإعدادية، لم تكن المدرسة وحدها عالمنا الصغير، بل كان الدكان القريب منها امتدادًا طبيعيًا لدفاترنا وحقائبنا وقلوبنا البريئة.

كان دكانًا صغيرًا فيه ثلاجة بيضاء صغيرة تئن من البرد، محشوة بعلب الميرندا والبيبسي، تقف في الزاوية كأنها كنز ثمين نكتشفه كل يوم من جديد.

كنا نخرج من المدرسة جماعات، نتظاهر بأننا عطشى إلى المشروبات الغازية، لكنّ الحقيقة أن العطش كان من نوع آخر. عطش إلى رؤية "بنت صاحب الدكان" التي كانت تجلس أحيانًا للبيع بعد عودتها من مدرستها. لم نكن نعرف عن البنات شيئًا، كأنهن مخلوقات جاءت من كوكبٍ آخر لا يُبثّ على موجاتنا الأرضية.

كانت كلمة واحدة منها تُعتبر جرعة رومانسية مركزة تكفي ليومٍ كامل من التخيلات الوردية.

"الميرندا باردة؟"

"هل وضعتِ بعضها في الفريزر قبل أن نأتي؟"

"هل عندكم نوع آخر من البسكويت؟"

كانت هذه الأسئلة – في ظاهرها – عن المشروبات، لكنها في الحقيقة تجارب مبكرة في علم الكيمياء العاطفية. مجرد أن تنظر إليك وهي ترد بابتسامة خفيفة، كفيل أن يجعلك تشعر أنك حصلت على معدل 100٪ في مادة "الرومانسية العملية."

ولم يكن هناك أي تجاوز أو قلة أدب، فقط ارتباك طفولي لطيف فيه من البراءة أكثر مما فيه من الجرأة .

كنا نغادر الدكان ونحن نضحك على بعضنا، لكن داخل كل واحد منا شيء صغير لا يريد أن يضحك- يريد أن يحلم فقط.

واليوم، بعد أن كبرنا، يخرج علينا من يقول بكل ثقة:

"الاختلاط في هذا السن ليس مشكلة."

فنبتسم بسخرية، ونقول في سرّنا: لم تكن مشكلة لنا...

ولكن مشكلة مع هذا الجيل الذي لم يتربّى على الدين والخلق, ولا يعرف العفاف.

🌿ذكريات وفاء للمدرسة 🌿

في المرحلة الأساسية، كنا بعد العصر نعود إلى المدرسة... لم تكن لها جدران تفصلنا عنها، بل كانت تمتد في قلوبنا قبل ساحتها.

البعض يلعب في ملاعبها، وآخرون – وأنا منهم – يجلسون في حدائقها نتحدث عمّا درسناه في ذلك اليوم.

وهناك من يجلس تحت شجرة يقرأ كتابه بصمت، وكأن الطبيعة كلها تصغي له.

وكانت المفاجأة الجميلة أن بعض المعلمين من أهل القرية، حين يخرجون نزهة، يعرجون على المدرسة أيضًا... يجلسون معنا، يبتسمون، يسألون، وكأن المدرسة بيتهم الثاني.

أتذكر مرة كنت أقرأ كتابًا خارجيًا، فمرّ أحد المعلمين وسألني بابتسامة:

"أخوك يحضر مجلة العربي... هل تقرؤها؟"

ابتسمت وقلت: "أقرأها بمجرد أن تصل البيت".

جلسوا معي وسألوني عن قراءاتي ثم غادرنا جميعا وقت صلاة المغرب.

ذلك الاهتمام لم يكن داخل الحصة فقط، بل في كل زاوية من حياتنا.

كانت المدرسة عندنا أكثر من مكان للتعلم... كانت وطنًا صغيرًا للحب والوفاء.

الفول، والوفاء للمدرسة!

في زمنٍ باتت فيه العلاقة بين الطالب ومدرسته علاقة مصلحة عابرة، يندر أن تجد من يحمل في قلبه حبًّا ووفاءً صادقًا لذلك المكان الذي صنع البدايات، وفتح له أبواب الحياة.

أينما نظرت حولك اليوم ترى كثيرًا من التبرم، والضجر، والشكوى من المدرسة، وكأنها عبءٌ لا رسالة له، في حين أن جيلًا مضى كان يراها بيتًا ثانيًا، وملاذًا آمنًا، وقطعةً من القلب لا تُنسى مهما طال الزمن.

أتذكّر مدرستي كما أتذكّر طفولتي، فهي الحاضنة التي شكّلت ملامحي الأولى، وغرست فيّ القيم قبل أن تغرس فيّ العلوم. لم يكن حبّنا للمدرسة تكليفًا، بل طبعًا فينا، وكأن الجدران تعرف أسماءنا، والمقاعد تحفظ أنفاسنا، والحديقة الصغيرة في الساحة تعرف خطواتنا صباحًا.

كان لدينا معلم زراعة لا يُنسى، مخلص في عمله كأنه يزرع فينا قبل الأرض. علّمنا كيف نعتني بالنبتة كما نعتني بالحلم. في تلك الحديقة كنا نزرع الفول، لا لنأكله فقط، بل لنخدم مدرستنا التي نحب. وعندما يحين موسم القطاف، كنا نأتي قبل الدوام بساعة، نحمل الدلاء وقلوبنا المليئة بالنشاط، نلتقط قرون الفول واحدًا واحدًا.

كان معلمنا يقول ضاحكًا: "كلّوا من الفول كما تشاؤون، لكن قرن في فمك، وقرن في الدلو"!

لكننا، رغم إباحته الكريمة، كنا نأكل القليل فقط، لأننا كنا نقول لأنفسنا: المدرسة أولى. تلك العبارة البسيطة تختصر روح الوفاء التي تربينا عليها، الوفاء الذي يجعل من الجهد الصغير عملاً نبيلاً.

المدرسة بالنسبة لنا لم تكن جدرانًا وساعات دراسة، بل كانت وطنًا صغيرًا نعيش فيه أجمل لحظاتنا، ونبني فيه ذاكرتنا الطفولية النقية. أما اليوم، فقد تغيّر الحال، وأصبح بعض الطلاب ينظرون إلى المدرسة كغريبٍ ثقيل الظل. لكنّي ما زلت أؤمن أن من ذاق طعم

الوفاء في طفولته، لا يمكن أن ينساه أبدًا، وأن زرع الفول في حديقة المدرسة كان أعمق درسٍ في الحياة: أن من يزرع بإخلاص، يحصد محبة لا تموت🌱 .

في المرحلة الأساسية، كان جسمي صغيراً وضعيفاً، لكن معلمينا لم يظهروا أي شفقة أو تعاطف أو دلال زائد. كانوا يعاملونني مثل الجميع، رغم أن ذلك كان صعباً جسدياً عليّ، لكنه كان مريحاً جداً نفسياً، فلا أشعر أنا , أو يشعر أحد من الطلاب أني أقل منهم.

كنت أنقل الماء بدلو معدني ثقيل من بئر حديقة المدرسة الواسعة لري نباتاتها، وأحرس الثمار بعد الدوام وفق البرنامج، مثل أي طالب، حيث يُناوب طالبين كل يوم لساعتين .

وفي حصة الرياضة، كنا نخلع الثياب ونبقى فقط في (البوكسرات) المصنوعة من أكياس الطحين، حتى لو كان الجو بارداً، وحتى مع المطر الخفيف، نلعب على العشب في بيادر القرية.

هذا لم يشعرني يوماً بالنقص، بل على العكس، ساعدني على زيادة الثقة بنفسي وقدراتي ,وبناء جسدي وتقوية مناعتي .
كان المعلمون على درجة عالية من الوعي، أعطونا مساحة للانخراط والتعلم والنمو، وجعلوا من النشاط البدني تجربة متكاملة للجسم والعقل .
جزاهم الله خيراً على ما قدموه من حكمة وإتقان ورعاية صادقة، دون أن يثقلوا علينا بالتعاطف أو الشفقة في غير محلها، لأنها لو كانت موجودة لكانت مسيئة أكثر مما هي مفيدة.

القصة الحركية- نشاط مدرسي منقرض!
عندما أتذكر أيّام المرحلة الأساسية، ينهض أمامي فريق من المعلمين المتميزين، أناس أضاءوا لنا طريق المعرفة والإبداع .

قابلت أحدهم قبل فترة، وبمجرد أن ذكّرته بتلك الأيام، انطلقت منه كلمة واحدة مليئة بالحسرة: »ذلك الجيل- نحن كمعلّمين، وأنتم كطلاب، ذهب ولن يعود"...

كان معلم اللغة العربية شاعراً مرهف الإحساس، يعاملنا كأدباء حقيقيين، ومن بيننا خرج كتّاب وأدباء لاحقاً.

معلم الفن، الذي كان أيضاً معلّم العربية، كان ينظر إلينا كفنّانين، وصار بعضنا مبدعين في الرسم والفن التشكيلي.

معلم الزراعة صنع منّا مزارعين بحق.

معلم التاريخ، كلما دخل الصف، كان يقول مبتسماً: »أنتم صف مؤرخين!«، وقد زرع فينا حب التوثيق والبحث عن الماضي.

ومعلم الرياضة، أخرج رياضيين صاروا مشهورين ودكاترة في مجالهم- وغيرهم الكثير.

ومن بين الأنشطة التي لا أنساها، كانت هناك فعالية تسمّى »القصة الحركية«، التي لم أسمع بها في أي مدرسة زرتها بعدها، رغم حضوري مئات المعارض والفعاليات التربوية.

كان معلم اللغة العربية، شاعرنا الفنان محمود الشلبي، يكتب شعراً يعبّر عن أفكار معيّنة. ثم يقوم معلم الرياضة باختيار مجموعة من الطلاب (20-40 طالباً) لأداء حركات تمزج بين الرياضة والحركات السويدية والتمثيل الصامت الإيحائي. وبعد تمرين طويل، تبدأ المتعة والفائدة. عادةً كان هذا النشاط يقام في يوم نشاط خاص بالمدرسة.

يقف معلم اللغة العربية، يقرأ الشعر بطريقة إيقاعية ساحرة، وفي نفس الوقت يترجم الطلاب الكلمات إلى حركات تعبّر عنها. كان هذا النشاط متعة للسمع والبصر، وكنت أنتظره بشوق كبير.

تذكرت مرة أنني حاولت المشاركة ضمن المجموعة، وبسبب طولي لم يكن مناسباً، ولكن معلم الرياضة لم يرغب في إحباطي، فسمح لي بالمشاركة. ومع أول خطأ صغير، قال لي بهدوء: »لقد أخطأت، أعتذر منك"، وأخرجني من المجموعة. شعرت بالغضب والحزن.

لكن كان هناك معلم الرياضيات قال لي ليخفف عنّي ويذكّرني: »يا خير، أنت في كل عرس تريد أن يكون لك فيه قرص!«.. لأني أستأثر بكثير من أنشطة العلوم واللغة العربية.

اليوم، وأنا أتذكر تلك الأيام، يملؤني شعور عميق بالامتنان. كم كنت محظوظاً بوجود معلمين مخلصين، ملهمين، أعطوا كل شيء من أجلنا. وأتمنى أن يُعاد إحياء هذه الفعالية، رغم تعقيدها وحاجتها لتضافر جهود عدة معلّمين مبدعين ...

ولكن، من أين يا حسرة؟

تحياتي إلى أساتذتنا الأفاضل، وجزاهم الله عنا كل خير.

براكة.. ما هي؟

عام 1969 بعد فترة من انتقالنا لقميم.. اشترى ابي لنا بيتا في حي جديد تبدأ بعده بيادر القرية..

في الصيف يعرف كل واحد أرض بيدره وينقل حصاده إليه..
كنا نلعب بين البيت والبيادر.. مر بنا أستاذنا محمد جبر وهو أحب المعلمين لي ولمعظم اهل القرية.. ابتسم وسألنا: هل أعطوكم براكة؟
قلنا: لا

ثم نظرنا لبعض ..إن لم يعطونا..نحن نحصل على هذه البراكة

ذهبنا إلى طريق الرجادين الذين ينقلوا الحصاد على الدواب.. وجمعنا بضعة سبلات قمح.. قمنا بفركها والنفخ عليها وملأنا صحنا صغيرا.. ذهبنا ومعنا أختنا الصغيرة للدكان القريب عند الشيخ الطيب أبو عارف ..فطلب أن نفرغ الصحن في شوال قمح وأعطانا ٥ حبات ملبس .اول شيء نحصل عليه من تعبنا...

مع أنه في البيت أكثر من ١٠ شوالات خط أحمر قمح من مزرعتنا😆.
ولكن نريد أن نعيش في الجو

صحيح.. المعلم.. تزوج بنت صاحب الدكان..وإبنه صديق هنا..
وتحدثت معه قبل قليل.

بئر الماء

في طفولتي كانت كل مزرعة لديها بئر ماء نبع, ولكن الذين جاؤوا من فلسطين أسسوا تجمعات سكانية على التلال فوق مزرعتنا وما حولها, ولم تصل مياه الأنابيب بعد.
كانوا يأخذوا ماء من القناة لري الحيوانات وأعمال المنزل, وللشرب يذهبوا لوادي العرب على بعد حوالي 4 كيلو حيث منبع الماء.
أبي سمح لهم أن يستقوا من بئره, وصممه ليخدم الجميع.
منطقة اسمنتية نظيفة حول البئر ممنوع أن تصلها الحمير التي تنقل الماء, وبجانب البئر مجرى مائي إسمنتي على ارتفاع مناسب, حيث يقوم من ينشل الماء بصب الماء بالمجرى ويركّب فم القربة على الماسورة التي تخرج من هذا المجرى وتمر فوق القناة لتصب في حوض اسمنتي على الأرض مخصص لرعي الأغنام, حيث من حدود المزرعة تبدأ حقول قمح لا تنتهي,.. تمتلئ بالبدو بعد حصاد القمح.. والقناة التي تغذي مزرعتنا والمزرعة التي تلينا, تجري يوم واحد في الأسبوع.
كنت بعد العصر إذا حدث اكتظاظ للنساء , حيث يحملن الماء في أوعية على رؤوسهن, أراقب من بعيد, فأنا لا أحب أي تصرّف غير مؤدب, فأضع لها تراب في سطلها, أما من تريد أن تأكل من ثمار المزرعة, فليس عندي مانع.
الصورة في العام الأخير لأبي, حيث وصلت المياه لبيوت الناس, ولم يعودوا بحاجة للبئر, وتم تقسم اراضي القمح وزرعها بالأشجار.

الصيد بالفخ

عمل يحتاج لتخطيط إستراتيجي معقّد, هناك طيور محددة يمكن صيدها بالفخ مثل البليقي.. بينما الدويري يهرب بعيدا جدا عند اول حركة..

يجب أن تعرف معدان أحد الطيور او مجموعة منه, وهو مكان يتردد عليه, حجر, غصن شجر, ونعرف هذا من كمية براز الطير.

ثم تبحث عن الطُعم, وفي حالة البليقي هو يرقات نأخذها من بعض أغصان نبات ذرة المكانس المصابة... المزروعة في الحقول القريبة. نعرف الساق المصاب من لونه, فنكسره ونأخذ الديدان الثمينة, التي أنيابها تخرش كفوف أيدينا, وحتى جنوبنا ونحن نضعها في جيوبنا, ولكن هذا لا يهم في سبيل البليقي.. المهم لا نتلف شيئا من الحقل أن نقطف من ثماره فيغضب صاحبه.

وقد نستخدم خنفساء الكعكل, نبحث عنها تحت الحجارة والصخور, وقد نذهب لمسافات لإيجادها..

نضع الفخ الذي نصنعه بأنفسنا بأسلاك حديدية نجمعها من المزبلة, والنابض نصنعه بأنفسنا من أسلاك دولاب سيارة قديم, قد نستخدم سكين, ويمكن أن نحرقه قليلا لإظهار الأسلاك, ولكن الحرق يقلل مرونتها, فنحن لدينا خبرة بهذا, ويجب أن يكون النابض الذي نصنعه قويا ليمسك العصفور ولكن ليس قاسيا جدا ليقتله.. ويجب أن يكون سلك الفخ خالي من الثنيات حتى يمسك العصفور ولو من طرف مخلبه الصغير.
الكرزم الذي نشبك به الطعم هو حساس الفخ, يجب أن ينطلق عند أقل حركة, ولكن ليس بسبب حركة الدودة وهي تتلوى عليه, نمهد التراب بشكل مائل حتى تسهل رؤية الطعم ونرش بعض التراب لتغطية الفخ ونبدأ بمطاردة العصفور يمينا ويسار لعدة مئات من الأمتار من الجهتين حتى يقع في الفخ وينتثر التراب ..
عندها تكون فرحتنا الكبرى.. نركض للإمساك بالعصفور قبل أن ينزلق هاربا أو يختنق ويموت
المهارات اليدوية كانت ثروة لا تُقدّر بثمن. صنعنا أدوات بسيطة من بقايا كانت تُلقى في المزبلة؛ لم تكن الفكرة في التباهي بالاختراع، بل في تحويل الموجود إلى حلّ عملي .
تدرّبنا على التعامل مع الأسلاك وصنع النوابض ، وتعلّمنا كيف نستخدم أدواتنا بذوق وباحترام للمواد التي بين أيدينا.
ولم تكن هذه الحرفة مجرد ممارسة جسدية: كانت أيضًا مدرسة للتفكير الاستراتيجي .
كيف تخطط لمسارك في الحقل كي لا تزعج الطبيعة حولك؟ أو يغضب منك أصحاب البساتين؟
كيف تحلل حركة الطير لتوجيهه نحو الفخ؟
كيف تتعامل مع الفشل عندما لا تسير الأمور كما خططت؟
كلّ هذا علّمنا المرونة والقدرة على تحسين الخطط من دون فوضى.
الحزن يقفز أحيانًا في ذهني حين أرى هذا الجيل يفتقد مثل هذه الخبرات ,ليس لأنني أطالب بإعادة الماضي حرفيًا، بل لأن تلك اللحظات أعطتنا آليات جسدية ونفسية:

احترام الطبيعة، معرفة مصادر الغذاء، الاعتماد على النفس، والقدرة على ملاحظة التفاصيل الصغيرة .

يمكن اليوم نقل هذه القيم بطرق آمنة : التعليم في الهواء الطلق، التعلّم عن مراقبة الطيور، تعلم الزراعة المنزلية، والمشاركة في ورش عمل لصنع أدوات يدوية وغير ضارة.

وفي النهاية طعم لحم العصافير البريّة لا يقارن به أي طعم, وفوائده ومغذياته لا تقارن بأي مكمّل غذائي.,

الآن انتشر التلوث, صوّرت طيور كنّا نأكلها تسبح في بحيرة المياه العادمة, وتأكل من النباتات والحشرات التي حولها.

ذكريات مع النُّوَر😅
كنا في طفولتنا نسمع عن "النُّوَر" أو "الغجر" أو "القِرباط"، وكان بعض كبار السن يسمّونهم »البرامكة«، ظنًّا منهم أنهم من نسل أولئك البرامكة الذين نكبهم هارون الرشيد بعد أن هددوا ملكه .

وكنت أضحك لاحقًا حين ذهبت إلى الشام ووجدت حيًّا كاملًا اسمه "البرامكة😂 "، فيه مجمّع السفريات للأردن ولبنان، وكأنّ التاريخ قرر أن يسكن هنا على رصيف الحافلات.
الغجر أنواع، بعضهم يعيش من التسوّل أو من أعمال فيها تسلية ومواويل ودعارة، وبعضهم حرفيون مهرة في صناعة الغرابيل والسكاكين .
تخيّل المشهد قبل عصر "التوكتوك": وجهاء القبيلة يجلسون مساءً حول النار بوقار، يأتي طالب متعة، فيشير كبيرهم إلى إحدى النساء: »فلانة، جاءت رزقة اليوم😅 "!
كانت الحياة بسيطة إلى حدّ الصراحة الفاضحة، لا نفاق فيها، فقط فقرٌ ونجاة بطريقتهم.
أذكر ذات مرّة خيّم شرق قريتنا مجموعة من النُّوَر يعملون في صناعة الغرابيل، ومرّ كبيرهم على بيتنا يبيع ما يصنعه. قال له أبي: »عندي غربال أريد تصليحه".
ردّ الشيخ: »هاتوه بعد العصر".
حين ذهبت مع أبي، وجدناه أمام خيمته، في واجهة المخيم الذي كان شرق قرية قميم قبل الجسر الحالي.
كانت النار مشتعلة، رائحة القهوة تعبق في الهواء، وكان يجلس كأنه زعيم حقيقي من زمن آخر. نهض مرحّبًا بنا، صبّ القهوة بيد ثابتة، وقال لأبي بابتسامة:
"الغربال يعيش أطول من الناس إن وجد من يصلّحه".
كان شيخًا بحق، فيه مهابة وكرم واعتداد...لم نشاهد أي إمرأة.

البداية.. حين كتبتُ للعشّاق قصائدهم 💟

بدأتُ أكتب الشعر وأنا في الصف الخامس، لم أكن أفهم تمامًا ما الشعر، لكنني كنت أشعر أن الكلمات تطيعني كما تطيع العصافير ألحانها.

وكان أستاذ اللغة العربية محمود الشلبي أول من لمح فيّ تلك الشرارة، فأخذ يشجعني، يبتسم حين أقرأ، ويصحح لي بلطف حين أخطئ، كمن يسقي نبتة صغيرة مؤمنًا أنها ستصبح شجرة ظلّها واسع.

مرت السنوات، حتى انتقلت إلى الثانوية في إربد، وكان من الصدف الجميلة أن وجدت الأستاذ نفسه هناك، وكأن القدر أعاده لي ليشهد الحصاد بعد أن غرس البذرة.

عرف الزملاء سريعًا أنني أكتب الشعر، فصار العشّاق منهم يأتون إليّ قبل الدوام، وفي الفُسح، وبين الحصص.

كان الواحد منهم يهمس لي خجولًا:

"خير... بدّي قصيدة إلها، بس لا تذكر اسمي".

يسرد لي ما يريد أن يقوله لحبيبته، فأترجم نبضه إلى أبيات.

وخلال دقائق، كنت أنسج له قصيدة كأنها خرجت من قلبه لا من قلمي.

ثم أذهب إلى أستاذي محمود الشلبي، أقرأها عليه، فيناقشني في الوزن والمعنى والصورة، ينتقد بلطف ويضحك قائلاً: "لو تعلم البنات أن هذا الشاعر الصغير يكتب لهن جميعًا"!

لم أحتفظ بنسخة من أي قصيدة كتبتها، فقد كنت أعتبرها أمانة بيني وبين زملائي، أسرارهم لا تُحفظ على الورق، بل في الذكرى.

لكن تلك التجارب الصغيرة صنعت بداياتي الكبرى،

علّمتني كيف أسمع مشاعر الآخرين، وأعبّر عنها بلسانهم،

وهكذا بدأت مهارتي اللغوية تنضج بين الحبر والعاطفة، بين الموهبة والتشجيع.

ذلك الماضي الحالم لم يكن مجرد ذكريات مراهقة،

بل كان الورشة الأولى لصانع اللغة الذي أصبحتُه فيما بعد،

وكانت مدرسة الأستاذ الشلبي أول محرابٍ لغويٍّ علّمني أن الكلمة يمكن أن تكون عبادة.

وأن الشعر إن لم يُكتَب بالصدق، فلا يُكتَب أبدًا.

الوردة الصفراء

في صباحٍ يوم شتوي من صباحات الثانوية، قطفت من حديقة بيتنا وردة صفراء،

لم أكن أدري أن لونها سيشعل قصة صغيرة في دفتر الذاكرة.

حملتها معي إلى المدرسة، كمن يحمل إشراقةً في يده،

فما إن رآها أحد الزملاء حتى جاءني ملهوفًا،

وقال: »خير. .أنا صديقك أريدها.

هي وردة الغيرة، وسأهديها لمن أحب.

لكن بشرط أن تكتب لي معها قصيدة،

تذكر فيها الوردة الصفراء وغيرتي".

ضحكت، وجلست على طرف المقعد،

وما إن انتهت دقّات الجرس حتى كانت القصيدة جاهزة،
كأن الكلمات تعرف طريقها دون أن أستدعيها.
سلّمتها له، واحتفظت فقط بالدهشة التي في عينيه.
تلك كانت أول قصيدة غزل اكتبها لزملائي.
كنت يومها لا أملك سوى قلمٍ سريعٍ وموهبةٍ فطريةٍ مرنة،
تتلوّن مثل تلك الوردة في يدي،
تفهم الغيرة والحب والحنين كما لو عاشت أعمار العشّاق.
اليوم حين أتذكر، أبتسم بهدوء:
تلك الوردة الصفراء كانت أول اختبارٍ لقدرتي على التحوّل اللغوي،
أن أكتب بلسان غيري،
وأجعل مشاعره تبدو وكأنها خرجت من قلبه لا من قلمي.
كانت لحظة بسيطة،
لكنها كشفت لي أنّ اللغة كائن مطواع،
إذا أحببتها أعطتك مفاتيح الناس جميعًا،
من العاشق الخجول إلى الفيلسوف الصامت.

عودة للشعر..

في الجامعة توقفت عن كتابة الشعر, السنة الأولى صعبة 4 ,مواد علمية باللغة الإنجليزية, بدون أي كلمة عربية. إضافة لمادة انجليزي لطلبة العلوم.

في السنة الثانية ذهب طلاب الأحياء, تقريبا كلهم سنة ثالثة ورابعة رحلة إلى الحمّة على نهر اليرموك حيث المياه الحارة, ثم التقط الجميع صورا تحت شلال يصب في النهر..

كانت بداية سعيدة ,ثم نهاية حزينة رؤية النهر وخلفه أرض عربية محتلة..

في رحلة العودة اختارت طالبة سنة ثالثة أن تجلس بجانبي في الحافلة, لأنهم يعرفون مجالات تميزي, كانت من رام الله والأجمل على دفعتها, أختها الأجمل على السنة الرابعة, وأيضا كنّا أصدقاء.. وهي الآن صاحبة مختبر طبي كبير في رام الله.

تحدّثنا في مجالات عديدة...نسينا الحافلة والطلاب ..قطع استغراقنا طالب سنة رابعة, كنت قد سحبت ترشّحي لرئاسة جمعية طلبة الأحياء من أجله, لأنه رابعة وأنا ثانية, كانت قصيدة وطنية تقليدية مملة ..

عندها بدأ شيطان الشعر يتحرك, شعر بالغيرة..

وقلت, لماذا لا أكتب قصيدة, ولتكن مقارنة ..

في الحافلة بدأت أضع أفكارها في ذهني, وعندما وصلت البيت كتبتها,

تبدأ بداية ساذجة, فرح وسعادة في رحلة جميلة مع الزملاء, وبعض الدكاترة الذين نحبهم.. ثم تخاطب نهر اليرموك بحزن..

ذهبت إلى السيد عبدالله موافي مدير شؤون الطلبة , أحسن استقبالي, وأمر بنشرها في العدد التالي لجريدة الجامعة..

في مختبر فيزياء جاء خبر صدور العدد, خرجت سريعا أحضرت نسخة وعدت, وعندما خرجت في نهاية المختبر, كثير من الطلاب جاؤوا للحديث معي, وأطلقوا عليّ لقب شاعر الجامعة..

وبعدها استمرت كتابة الشعر حتى قبيل التخرج..

نظرت في الدفتر الذي كتبت به ديواني , وجدت شعري لا يرقى إلى المستوى الذي أطمح به , فمزقته وحرقته.

صحيح لم يعجبني أنا , ولكن لا يقارن بما ينشر حاليا , كنت أقول: أين أضع رجلي بين كبار الشعراء في تاريخ الأدب العربي؟

وأوقفت كتابة الشعر نهائيا.. إلا قصيدة أنا الخطاء يا رب كتبتها منذ سنوات , وقد غنّـتها فرقة مدرسة سيئون الثانوية للبنين بإشراف المعلم مؤمن أبو طاعة.. والملف عندي لمن يريد.

محطة الرصد الجوي... في مدرستنا

مختبر في الهواء

ما زلت أذكر ذلك الصباح البعيد، حين كنا طلابًا في الصف السادس، نحمل شغفًا أكبر من أعمارنا، ونقف أمام مختبر العلوم كمن يقف على باب مغامرة جديدة.

كان معلمنا الأستاذ محمد جبر – رحمه الله – قد قرر أن يجعل من مدرستنا الصغيرة محطة رصد جوي، أشبه بمرصد العلماء الكبار، لكن بقلوب أطفال تلمع فيها الدهشة.
نصبنا أدواتنا ببساطة وحماس: ميزان الحرارة, ميزان الحرارة العظمى والصغرى، مقياس الضغط الجوي، دوارة الرياح لتحديد السرعة, وكيس الرياح، ويوجد في حديقة المدرسة جهاز لقياس كمية المطر, وغير ذلك.
كنا نخرجها كل صباح باكر، قبل أن يبدأ الطابور، نضعها في مكانها المخصص، نأخذ القراءات، نسجّلها في الورقة الرسمية، ونكتب الملاحظات:
"اليوم رياح شرقية خفيفة- درجة الحرارة 15- الرطوبة عالية- يبدو أن المطر قريب".

كان طالب من الصف الإعدادي يسجل في نهاية اليوم ملاحظاته: هل سقط مطر؟ هل وميض البرق زار سماءنا؟ هل دوّى الرعد؟
ومع مرور الأيام، صرنا نقارن القراءات، نحاول فهم العلاقة بين الأرقام والسحب، بين الضغط والبرد، بين الريح والمطر.
لم تكن أدواتنا دقيقة، ولا سجلاتنا طويلة، لكنها كانت دقيقة في أثرها علينا، وغزيرة في معناها.

من تلك المحطة الصغيرة خرجنا نحمل شيئًا كبيرًا:
تعلمنا النظام، والدقة، والانتباه للتفاصيل.
تعلمنا أن العلم ليس ما يُحفظ في الدفاتر، بل ما يُعاش بالعيون والأيدي والعقول.
تعلمنا أن النجاح يبدأ حين نضع أيدينا في التراب والهواء والمطر، ونحاول أن نفهم العالم كما هو، لا كما نقرأه فقط.

كانت تلك التجربة بذرة، وسُقيت بالإخلاص والفضول حتى أثمرت فينا.

من تلك المحطة خرجتُ أنا لاحقًا المخترع والمؤلف، بخبرة ودهشة لا تموت، وخرج غيري من الزملاء ناجحين في مجالات شتى، كلٌّ أخذ من تلك الأيام شعلة صغيرة وضعها في طريقه.

محطة الرصد الجوي لم تكن مجرد نشاط علمي مدرسي، بل كانت مدرسة في الإيمان بالعلم، والانضباط، والإخلاص.

كانت درسًا في كيف تصنع من أبسط الأدوات أعظم البدايات.

وما زلت أذكر ذلك الصباح، حين كان المطر على وشك النزول، ونحن نحدّق في السماء بفرحٍ يشبه انتظار المعجزة.

و

يمكن لأي طالب أو معلم أن يصنع بنفسه نماذج بسيطة من كل أجهزة قياس الطقس بتنزيل كتابي الرقمي , مختبر في الهواء

حين كان الناس أنقى..

في عام 1968 هاجرنا من مزرعتنا بسبب الحرب إلى قرية قميم، واستأجرنا بيتًا على حافة وادي حوفا، وكان لأصحاب البيت أرض مزروعة أثمر فيها اللوز. لم يكن ذلك الجنون باللوز الأخضر كما يحدث اليوم؛ كانوا في قميم يسمّونه "الحبربور."

قبل مدة توقفت عند بائع لوز أخضر شاب من قميم، وسألته: "كم سعر الحبربور؟" لم يفهمني، فابتسمت وقلت في نفسي: ها هي مفردة أخرى تضيع من لغتنا. ثم أوضحت له قصدي، وتذكرت تلك الأيام حين كان اللوز يجف، فنذهب ونقطف منه ونأكل دون أن نستأذن أحدًا، لأننا كنا نشعر أننا من أهل البيت، ولم نسمع منهم يومًا ملاحظة أو تذمرًا.

في آخر الصيف رحلنا إلى بيت أوسع على أطراف قرية قم القريبة، لنسكن جزءًا من بيت عائلة أبو مازن، وكان عمله يضطره للغياب أيّامًا، فكانوا يريدون رفقة تؤنسهم في زمن الحرب, ونحن أيضا, فوالدنا يمضي معظم وقته في المزرعة. في حاكورة البيت كان البطيخ والفقوس والبامية والبندورة البلدية الصغيرة الحامضة، وكان هناك الكثير من الصبّار، وكنا نأكل من كل شيء كأنه بيتنا تمامًا.

كنت في الصباح - وكانت عطلة صيفية أصنع طبق سلطة بندورة كبير لنا ولأطفال الجيران، وكانت الطفولة تشارك الطفولة في البساطة والكرم دون حساب.

أيضا, كل شيء يحضره أبي من المزرعة شراكة للجميع, حتى الحطب, حيث أحضر شاحنة حطب لموقد الخبز..

وذات يوم دعانا والد صاحب البيت الذي يسكن في القرية نفسها إلى الغداء، وكان هذا النوع من الدعوة تُسمّى "نزالة."

وفي القرب منا بيت شعر لبدو صاروا هم أيضًا جيرانًا وأصدقاء. لم يكن أحد يسأل عن الأصل ولا اللهجة ولا القبيلة، كانت الجيرة هي النَسَب، والمودة هي الهوية.

ثم يأتي اليوم من يقول لك إن الشعب الأردني عنصري؟

تبتسم وتسترجع كل تلك الصور، وتقول في نفسك: لو عرف كيف كنا نقتسم اللقمة والبندورة والظل، لعرف أن هذه البلاد نبتت من كرمٍ لا يعرف العنصرية، ومن قلوبٍ كانت أوسع من وادي حوفا نفسه.

صحيح..

يوجد أقارب لتلك العائلات أصدقاء هنا.

كان عندما معلم مميز يعاملنا كعلماء صغار لا كطلاب. في أحد الدروس شرح لنا فكرة الجرس الكهربائي التقليدي المكوَّن من ملف وصفيحة مرنة؛ فعند مرور التيار تنجذب الصفيحة لتقرع الناقوس الحديدي، ثم تنفصل الدائرة لتعود الصفيحة إلى موضعها، وهكذا يتكرر الرنين.

بعد الحصة، خطرت لي فكرة تطوير بسيطة: أن أصنع جرسًا يعمل عند فتح الباب لا عند إغلاقه. استخدمت قطعتين من الحديد على طرفي الباب لتكوين حساس بسيط؛ فعند إغلاق الباب تتلامسان وتُغلق الدائرة فيرن الجرس الإلكتروني الصغير الذي يعمل بالبطارية. لكني أردت العكس – أن يرن عند فتح الباب.

فكرت قليلًا، ثم استخدمت جرسًا كهربائيًا عاديًا ووصلت أسلاكًا بالصفيحة المرنة بطريقة تجعلها تُبقي الدائرة مفتوحة ما دام هناك تيار، فإذا انقطعت الكهرباء (أي عند فتح الباب) أغلقت الدائرة فاشتغل الجرس الإلكتروني.

بعد سنوات طويلة، رويت هذه التجربة لمهندس إلكترونيات فقال لي مبتسمًا:

»لقد صنعت مرحلًا كهربائيًا (Relay) دون أن تدري! وهي من قطع الإلكترونيات الأساسية«.

لاحقًا كتبت عن هذه التجربة في كتبي حول الإلكترونيات، وصممت نماذج تعليمية مشابهة استخدمتها لتبسيط فكرة المرحل للطلاب .

حين يُعاقَب الشغوف بالمعرفة

في طفولتي، كنت أرى النقود التي تصلني من أهلي كبذورٍ صغيرة أستطيع أن أزرعها في أرضٍ واحدة فقط: أرض الكتب.

لم أكن أفكر في الملابس أو الطعام أو الألعاب، كنت أذهب إلى السوق في إربد لأشتري كتابًا وأعود به إلى البيت وكأنني عدت بغنيمةٍ ثمينة.

أما إذا كان المبلغ لا يكفي، فكنت أرافق ابن خالي إلى السينما؛ نضحك ونتحمس لأفلام الكاراتيه والكاوبوي، وكأننا نحاول أن نعوّض الكتاب المفقود ببعض الخيال المؤقت.

لكن العجيب أن أهلي لم يغضبوا من ذهابي إلى السينما، بل من شرائي للكتب. كانت تلك المفارقة تزرع في نفسي شعورًا بالذنب كلما أمسكت بكتاب جديد، وكأن المعرفة تهمة تستحق العقاب. كنت أتعلم مبكرًا أن بعض البيوت تخاف من الفكر أكثر مما تخاف من اللهو.

أذكر في إحدى عطلات نصف السنة، الجو كان ربيعيًا دافئًا، وحصلت على بعض النقود. ذهبت إلى السوق واشتريت كتابًا عن الصحابة. عدت مسرعًا إلى البيت، أخفيت الكتاب

تحت البلوزة، ومررت من باب الصالون بخفة لصوص الحكايات. كانوا يفطروا في فناء البيت، فدخلت بهدوء، خبأت الكتاب، ثم جلست معهم كأن شيئًا لم يكن. دعوت الله أن ينجيني من التوبيخ، لا لأنني خفت من العقوبة، بل لأنني كنت أريد أن أحتفظ بسلام اللحظة التي امتلكت فيها شيئًا يخصني وحدي: كتابي.

اليوم، حين أستعيد تلك الصورة، أفهم أن كثيرًا من الأطفال الذين بدت تصرفاتهم غريبة في نظر أهلهم، كانوا يحملون في داخلهم شرارة مختلفة. بعضهم كان يشتري كتبًا بدل الحلوى، وبعضهم كان يجمع الأسلاك بدل الطوابع، وبعضهم كان يكتب على الجدران بدل الدفاتر. هؤلاء لم يكونوا «أطفالًا عنيدين» كما قيل لهم، بل «براعم تميّز» لم تجد يدًا حانية تسقيها.

إن أسوأ ما يمكن أن نفعله في بيوتنا هو أن نُطفئ شغف المعرفة في قلوب أطفالنا، لأننا بذلك نطفئ المستقبل فيهم. فالعقاب على الفضول جريمة تربوية صامتة، واللوم على حب القراءة خيانةٌ للذكاء الذي يحاول أن يولد.

لقد كبرتُ اليوم، وما زلت أذكر تلك اللحظة التي خبأتُ فيها الكتاب تحت البلوزة. ربما لم أكن أخفي ورقًا مطبوعًا فحسب، بل كنت أخفي بذرة حلمٍ ستنبت لاحقًا لتصبح حياةً مليئة بالكتابة والعلم والإبداع.

خاتمة:

إن الطفل الذي يشتري كتابًا بماله الصغير، لا يحتاج إلى تأديب، بل إلى تصفيق. لأنه أدرك وحده، في زمنٍ اللهو، أن العقل هو أعظم ما يُقتنى

الطوابع... كتبٌ صغيرة تعلّمنا الجغرافيا والفن

في أواخر الستينيات، كانت هواية جمع الطوابع من أجمل ما يمكن أن يملأ وقت الطفل بالدهشة والمعرفة. لم تكن لدينا قنوات فضائية ولا إنترنت، ولكن كان لدينا بريد يحمل إلينا العالم على أطراف أوراقه .

كان أخي يتلقى رسائل من أصدقائه، وكنت أتلقى رسائل من ابن عمي الذي يدرس في السعودية، وكنت أجمع الطوابع من بعض الجيران والأقارب. لم يكن أحد من حولي يرى في تلك الرسائل شيئًا مهمًا، أما أنا فكنت أرى فيها نوافذ صغيرة على الكون.

كنت أنتظر الرسالة لا لأقرأ كلماتها فقط، بل لأتأمل الطابع الملصق عليها. كنت أفكّه بحذر، ثم أضعه على صفحة جديدة في دفتري، كأنني أضيف سطرًا جديدًا إلى كتاب الحياة. كانت بعض الطوابع أجنبية، فأعرضها على أخي الأكبر الذي كان يستعين بالأطلس ليعرف البلد الذي صدرت منه. هكذا تعرّفت وأنا طفل على أسماء لم تكن مألوفة: رأس الخيمة، الفجيرة، محمية عدن، اليمن الجنوبي، يوغوسلافيا... أسماء تحولت في مخيلتي إلى خرائط وألوان وأناس يعيشون خلف الأفق.

كانت الطوابع بالنسبة لي مدرسة جغرافيا وفن في آنٍ واحد. كل طابع يحمل لوحة فنية مصغّرة، رسمها فنان مبدع ليحكي قصة وطنه بلونٍ ومساحةٍ لا تتجاوز أصابع اليد. فيها صورة لملك، أو زهرة، أو طائر، أو معلم أثري، أو ذكرى وطنية. ومع الوقت أدركت أن الطابع ليس مجرد ورقة بريدية، بل رسالة ثقافية ترحل عبر الحدود لتقول: »ها نحن هنا".

ما زلت أذكر ذلك الدفتر السميك الذي كنت ألصق عليه الطوابع بعناية، وأكتب تحت كل طابع اسم البلد وتاريخ وصوله. كان دفترًا بسيطًا لكنه فتح لي أبوابًا واسعة نحو المعرفة، وجعلني أحب الخرائط والفنون في وقتٍ لم تكن فيه هذه الكلمات مألوفة للأطفال.

اليوم، حين أتذكر تلك الطوابع، أبتسم. كانت صغيرة الحجم، لكنها صنعت فيّ شيئًا كبيرًا: حب الاكتشاف. ومن بين كل الهوايات العابرة التي عرفها الأطفال في زمننا، تبقى هواية جمع الطوابع رمزًا لروحٍ تشتاق إلى العالم دون أن تغادر بيتها.

الطابع ليس ورقة بريدية، بل وثيقة ثقافية مصغّرة. ومن يجمعها، لا يجمع صورًا فحسب، بل يجمع وجوه الحضارات ولغات الشعوب وألوان الجمال الإنساني.

ذكريات بيروت: حين كان الكتاب أول الإغراءات

في أوائل السبعينيات، أخذني أبي إلى بيروت للعلاج، وكانت تلك الرحلة من أولى نوافذي على العالم الكبير. سكنّا في نزل غصن الزيتون قرب ميدان رياض الصلح، في قلب بيروت التي كانت آنذاك تضج بالحياة، تتراقص على وقع الباعة، وصوت المقاهي، ورائحة القهوة والدخان والبحر, وأكثر من 12 جريدة يومية ,كنت قد أنهيت الصف السادس، وما زلت طفلاً بين الدهشة والعقل، أستكشف المدينة بعينين تلتقطان كل تفصيل جديد.

كان يُسمح لي أن أنزل إلى السوق القريب، ومعي بعض النقود القليلة التي بدت لي يومها كنزاً كبيراً. السوق كان عالماً ملوّناً، فيه ما يُغري أي طفل: ألعاب براقة، حلوى ملونة، وأصوات مناداة الباعة لا تنتهي. لكنّ شيئاً في داخلي كان يسحبني بعيداً عن كل هذا الضجيج إلى زاوية هادئة على الرصيف، حيث يجلس بائع الكتب العجوز، يرتدي اللباس اللبناني التقليدي، وعلى رأسه طربوش أنيق أحمر اللون، كأنه خرج لتوه من صفحات التاريخ.

كانت الكتب أمامه كأنها صناديق سحر، تفوح منها رائحة الورق والحبر والدهشة.

اقتربت منه أول مرة بخجل، ووقفت أتأمل العناوين، وشيئاً فشيئاً صار بيننا حديث صغير يشبه الصداقة. كنت أشتري كتاباً أو اثنين، وأعود إلى الفندق أحملها كما يحمل طفل لعبته المفضلة. لكن كنت أخفيها بين أكياس الطعام والفواكه التي أشتريها لي ولوالدي، كي لا يكتشف أبي أنني أنفقت نقودي على الكتب لا على حاجات السفر.

في تلك الأيام، أدركت للمرة الأولى أن القراءة ليست مجرد هواية، بل غريزة داخلية تشبه الجوع والعطش. كنت أقرأ في المساء على ضوء خافت، بينما المدينة تغفو خلف النوافذ الزجاجية للنزل، وأسمع ضجيج السيارات يختلط بأصوات البحر. كانت بيروت وقتها أجمل مما يتسع له وصف، مدينة تجمع بين الشرق والغرب، بين الحلم والواقع، وبين العقل والجنون.

كل كتاب اشتريته يومها كان بوابة لعالم جديد، وكل صفحة كانت خطوة أولى نحو وعي أكبر. ربما لم أكن أدرك أن تلك الكتب الصغيرة المخبأة بين أكياس الطعام ستصنع مستقبلي وتحدد طريقي، لكنها فعلت.

ومنذ تلك الرحلة، بقيت بيروت في ذاكرتي لا كمدينة فحسب، بل كـدرس مبكر في الإحساس بالجمال والمعرفة. هناك تعلّمت أن الطفل الذي يفضّل كتاباً على لعبة، إنما يحمل في داخله مشروعاً لإنسان مختلف، يرى في الحرف غذاءً أعمق من الخبز، وفي الفكرة دفئاً أبقى من النار.

لقد كان »نزل غصن الزيتون« محطة صغيرة في حياتي، لكنه الغصن الذي حمل أول ثمرة من ثمار المعرفة في قلبي.

درس من دفتر الرسم

كنت في الصف الرابع، وأختي في الصف الأول. والداي، رحمهما الله، أميّان، لا يقرآن ولا يكتبان، فكان عليّ أن أكون عينها ويدها في المدرسة. كنت أتفقد دفاترها، أسألها عن

الواجبات، أشرح لها ما لم تفهمه، وأشعر أحيانًا أن مسؤوليتي تجاهها أكبر من مسؤوليتي عن نفسي.

في أحد الأيام طلبت من أختي دفتر الرسم. فتحت الدفتر لأجد رسمة دمية ، لكن ما لفت انتباهي كان الخط الأزرق المستقيم في أعلى الصفحة، وفوقه مربع صغير مكون من خطوط متوازية ملونة رسمتها بكل أقلام الشمع لديها، جلست للحظة أقرأ الرسمة ، وفهمت فورًا ما تريد أن تقوله بعاطفتها الساذجة: "الله موجود، وفوق السماء."

ابتسمت لها بعطف، لكن شعور الواجب سيطر عليّ. في لحظة براءة الطفولة، كان عليّ أن أوضح لها حدود ما يجوز وما لا يجوز، بطريقة تحفظ مشاعرها ولا تكسر روحها المرحة. أمسكت المقص الصغير، وقصصت الرسم بحذر حتى حدود الخط الأزرق، دون أن أجرح الألوان ولا أفسد جمالها, وشرحت لها أنه لا يجوز رسم الله.

بعد أن انتهيت، شعرت براحة عميقة. كنت قد فهمت نيتها، وتعاملت مع الموقف بحكمة. لقد أدركت أن المسؤولية ليست فقط في تعليمها المهارات الأكاديمية، بل في تعليمها الحياة، والوعي، والقدرة على التمييز بين العاطفة والحدود.

في تلك اللحظة الصغيرة، تعلمت درسًا أكبر من أي درس مدرسي: أن الوعي بالنيات، والرحمة، والحكمة في التعامل مع الآخرين، حتى مع من هم أصغر منا، هو ما يشكل الإنسان حقًا. وأن كل تجربة، مهما بدت بسيطة، يمكن أن تكون حجر الأساس لشخصية واعية، متفهمة، ومسؤولة.

بيروت...

بيروت... لا أدري أكان من حسن حظي أم من سوءه أن عرفتها وهي في قمة عنفوانها، في أوائل السبعينيات، حين كانت تضج بالحياة، وتغلي بالثقافة، وتفوح منها رائحة الكتب والقهوة والحرية.

ثم جاءت الحرب، وتغير وجه المدينة، لكن شيئًا في أعماقها بقي كما هو: نَفَسها الثقافي، ودفء جامعتها التي كانت بالنسبة لنا أكثر من صرح علمي، كانت بوابة حلم. جامعة بيروت العربية كانت تعني لنا الكثير، فكل من ترك بصمة في حياتي تقريبًا مرّ من هناك: أخي، وأخوالي، وأقاربي، وحتى كثير من المعلمين الذين درّسوني.

رأيتها أول مرة شابة متألقة، ثم عدت إليها بعد الحرب عدة مرات، بعضها في زيارات عمل، وبعضها بدافع الحنين. ومع كل زيارة كنت أكتشف أنها لا تُشيع، كأن بيروت

تُطعم الزائر من ذاكرةٍ لا تنتهي.
كثير من كتبي طُبعت هناك، ومع ذلك، حين صارت عمّان تملك طباعة وتجليدًا يضاهي بيروت - بل أحيانًا يتفوق عليها شعرت بشيءٍ يشبه الفخر والحنين معًا.

أتذكر ذات مرة كنا في نهاية رحلة سياحية إلى لبنان مع شركة سورية، وكان آخر موقف لنا في مول كبير ببيروت. لم أحب المولات يومًا، فهي في نظري متشابهة حد الملل، نسخ مكررة بلا رائحة ولا حكاية.
تركت المجموعة وخرجت إلى الأزقة المجاورة أبحث عن شيء بقي فيه "طعم بيروت". هناك، وسط الزقاق، وجدت مكتبة تبيع كتبًا مستعملة فقط. أحب هذه المكتبات أكثر من الحديثة، ففيها مغامرة الاكتشاف، لا تعرف ما الذي ستعثر عليه، ولا يوجد كتابان متماثلان.

كان صاحبها عجوزًا يجلس بعيدًا عن الباب، يحتسي قهوته بهدوء كأنه يحرس ذاكرة المدينة. غطست بين الرفوف، أقلب الصفحات كمن يبحث عن نفسه بين الكلمات.
نسيت الوقت، ولم يخرجني من عالم الكتب إلا صوت السائق ينادي: الحافلة على وشك المغادرة!

وفي آخر زيارة لي، كانت رحلة عمل، ودعاني صديقي اللبناني إلى كأس مثلجات في ليلة عاصفة باردة ممطرة قرب بوابة جامعة بيروت العربية, بعد أن زرنا معا معرض الكتاب, وكانت كتبي هنا.
جلسنا نضحك ونتحدث عن الكتب والطلاب والحياة.
هناك، أمام الجامعة التي شكّلت بدايات كثير من الأحلام، أدركت أن بيروت ليست مكانًا نودّعه، بل ذكرى تسكننا مهما ابتعدنا عنها

كنت في عامي الثاني من العمر، وأخي الأكبر مسافر للدراسة.

في البيت، كان والدي وأمي وزوجة أبي موجودين، وأحيانًا يأتي العمال أو الزوار خلال النهار.

البيت مبني من الطين، والتراس الذي أجلس عليه كان عرضه مترين ونصف فقط، والفناء مليء بالحيوانات: كلبان ودجاجات... ,

المزرعة التي تحيط بالبيت تمتد طوليا لأكثر من 400 متر، طويلة أكثر من عرضها، مليئة بالأشجار وفي نهايتها حقول الخضار, والبرسيم حيث تذهب العائلة للعمل وتتركني,

غالبا لقص البرسيم وإحضاره للبقرة والأرانب, والبغلة والحمار, وأحيانا يكون بعض الماعز أو الخراف.

كنت أجلس وحيدًا على شوال من الخيش لساعات طويلة، لا أسمع سوى صوت الحيوانات وصخب العمال في المزارع القريبة.
تعلمت منذ ذلك الحين أن هذا هو خياري الوحيد، فجلست في مكاني بهدوء، لا أغادر الشوال حتى لا أوسخ ثيابي النظيفة أو أسقط على الأرض الترابية.

كانوا يقولون لي، أحيانًا من باب التندر، أنني كنت أقضي بعض وقتي في تقشير فصوص الثوم, حيث كان يوجد قربي كومة ثوم تم جمعها حديثا..
في البداية، غضبت أمي، فهو أسرع شيء تقوم به حين يتعلق الأمر بي، لكن والدي كان يبتسم ويقول: "كل يوم خذوا الثوم الذي يقشره خير، وأقلوه لي مع بعض البيض البلدي".
وفعلاً، أصبح هذا الطعام المفضل له طوال حياته.

لم أكن أعلم حينها، أن ما أفعله ليس مجرد تسلية. كان هذا النشاط البسيط تمرينًا لعضلات يدي، وتحفيزًا لنصفي دماغي.
كانت يداي تتعلم الدقة، وانتباهي يزداد مع كل فص ثوم أقشره.
كانت تلك المهارة الصغيرة ستصبح فيما بعد أساسًا للقراءة والكتابة، وللتركيز والانتباه في كل ما أفعله لاحقًا.

ذكريات تلك الساعات الطويلة تحمل قسوة الحياة، لكنها تحمل أيضًا درسًا في المسؤولية المبكرة، والانضباط الذاتي.

كنت وحيدًا، لكنني تعلمت أن أكوّن لنفسي مساحة للسلام والتركيز، وأن أجد معنى لما أفعله حتى في أبسط الأمور.

ووالدي، بذكائه العملي، جعل من هذه التجربة الصغيرة جزءًا من الحياة، ومن عملي الصغير قيمة حقيقية .

كنت في المرحلة الابتدائية حين طلبت مني أمي أن آخذ أختي الصغيرة لتسجيلها في روضة تديرها جمعية خيرية .

كانت الروضة جميلة، نظيفة، مجهزة بما يبهج الصغار، وتقدم وجبة إفطار شهية .

حملت معي ثمانين قرشًا - مبلغ التسجيل - وكأنها كنز ثمين أوصتني أمي بالحفاظ عليه أكثر من نفسي, دفعته للمعلمة, وسجّلت اسمها.

دخلت مع أختي الصغيرة إلى الصف، جلست قربها قليلاً لأطمئنها، ثم حاولت أن أغادر.

ما إن رأتني أنهض حتى بدأت بالبكاء، تتشبث بيدي وتصر على المغادرة. عدت إلى المعلمة، أعتذر بخجل، واسترجعت المبلغ، وخرجنا معًا .

وفي الطريق، كنت أكلّمها كما يكلم الكبار بعضهم بعضًا، أحاول بكل ما أوتيت من الحيلة أن أقنعها بالعودة.

نجحت مرة أخرى في إقناعها، وعدنا، دفعت الثمانين قرشًا، وجلست معها من جديد، ثم حاولت أن أخرج... وبكت من جديد .

تكررت المحاولة خمس أو ست مرات، وفي كل مرة أدفع المبلغ ثم أسترده، والمعلمة الصبورة تبتسم لي رغم العناء، لا تملّ ولا تضجر.

كنت أخاف أن أعود إلى البيت ومعي أختي وليس معي الثمانون قرشًا، فحينها لن ترحمني أمي !

كنت أوازن بين نظرة الغضب في وجه أمي ,ونظرة الرحمة في عيني المعلمة، وأتأمل الفرق بين خوف يربّي، وصبر يعلّم.

تلك المعلمة لم تزرع في طلبتها الحروف فحسب، بل زرعت فيّ معنى الأخلاق الهادئة، كيف يمكن للصبر أن يفتح باب الطمأنينة، وللرفق أن يصنع التزامًا بلا خوف.

واليوم، كلما تذكّرت وجهها الهادئ وهي تمدّ يدها لتعيد لي المبلغ، شعرت أن التربية ليست في التعليم وحده، بل في الصبر الجميل الذي يُخرج من الموقف الصعب درسه الأجمل.

وعندما التزمت بالروضة وأحبّتها, كنت في الفرصة أذهب وأقف تحت النافذة وأناديها, فالروضة ملاصقة للمدرسة, وكنت بما أملك من قروش, أشتري شيء تحبه من مقصف

المدرسة أو البائع المتجوّل وأرميه لها.. مع أن الروضة تعدّ لهم طعاما, وأحيانا توزّع ألواحا من الشوكولاته, التي إشتهيتها, ولم أتذوّقها.

خبز التوست.. زمان 😅

هذا الخبز لم يكن معروفا إلا في طعام الجيش, ولهذا كان يعتبر حلما لنا ونحن صغار.. كنا نخرج في ايام العطل بعد الفجر إلى الطرق الزراعية وأطراف الأودية والتلال في الجو الأخضر النظيف نراجع دروسنا..

أحد الأيام قال لنا زميل يعمل ابوه طاهي في الجيش في منطقة تقع بعد القرية: قبل قليل مرّت شاحنة التموين وفيها أصدقاء أبي وأعطونا خبز..

شعرنا بالغبطة والحسد والندم لأننا تأخّرنا, ولمدة أسبوع كنا نرابط معه على الطريق, ولم تأت سيارة الجيش, ربما تغير برنامجها..

ثم..

بداية عملي في التربية كنّا في زيارة لقرى المفرق, مع مرور شاحنة مليئة بالخبز الساخن, أعطونا بعضه.. وشعرنا بالسعادة.

لاحقا, الجيش تحوّل إلى الخبز العادي, الآلي.

يعني..

من يذهب للسوبرماركت الآن, يجد أشياء لا تلفت انتباهه, كانت حلما بالنسبة لنا

طيلة حياتي، لم تجذبني كرة القدم ولا الطابة كما يسمّيها الأطفال، ولا ألعاب الكرات الزجاجية (الدواحل) أو غيرها من عشرات الألعاب الشعبية التي يلعبها أقراني. لم أصنع سيارات من الأسلاك مثلهم، ولم أجد متعة في محاكاة ما يصنعونه .

ولكن إذا أتيح لي بعض الخردة أو المواد البسيطة، كنت أحاول صنع شيء مختلف، شيء لا أعرف تمامًا ما هو، لكنه ينبع من فضولي وحبي للاستكشاف والتجربة.

مع مرور الوقت، أصبح لدي وعي غريب للكتب، لعوالمها، ولطرقها التي تمكنني من فهم الحياة والعالم.

عندما كبرت، كتبت عشرات الكتب الورقية والرقمية، مستوحاة من طفولتي لمن هم مثلي من الأطفال العرب الذين لم يجدوا كتبًا تشبههم أو توجه اهتمامهم نحو العلوم والتجارب. كتب تساعد الأطفال على صنع أجهزة وتجارب وألعاب ونماذج وقياسات تعينهم فهم الفيزياء والكيمياء والأحياء وعلوم الأرض والفلك والبيئة والرياضيات والهندسة والتكنولوجيا، وحتى الاستمتاع بالدراسة بطريقة ممتعة وملهمة.

في المرحلة الابتدائية، تم تأسيس جمعية خيرية بجهود شباب القرية، خاصة المعلمين، ومن بينهم أخي الذي استمر بدعمها حتى وهو مسافر. وفي هذه الجمعية، كان هناك نادي للأطفال مجاني يفتح بعد الدوام، وكان زاويته المفضلة بالنسبة لي مكتبة صغيرة، كنز حقيقي.

في النادي تعلمت الشطرنج والدومينو، لكن لم أستمتع بها كما يستمتع أقراني. أما الكتب، فقد كانت بوابتي لعوالم جديدة؛ قرأت كثيرًا من كتب مصطفى محمود، رغم أن بعضها لم يكن مناسبًا للصغار، لكنني كنت أعرف ما أستقبله وما أرفضه. وأيضًا غاصت عيني في صفحات ألف ليلة وليلة وغيرها من الحكايات، فكانت المكتبة في النادي مكانًا رائعًا، مليئًا بالإلهام والفضول والمعرفة.

هذا الجمع بين الصبر والشغف، وحب المعرفة، شكل جوهر شخصيتي منذ طفولتي.

عشقي للكتب لم يكن مجرد قراءة فقط، بل رغبة في الابتكار وصنع شيء مختلف، شيء يساعدني على فهم العالم من حولي، وعلى استلهام الإبداع من أبسط الأشياء.

وحتى اليوم، ما زلت أحمل هذا الشغف، هذا الإحساس بأن لكل خردة قيمة، ولكل كتاب رسالة، ولكل لحظة فضول فرصة لصنع جديد.

في السادسة من عمري، كان أخي قريبًا من الخامسة وأختي تبلغ من العمر أربع سنوات . كنا في مزرعة بعيدة عن القرية، لا أطفال ولا حضانة، والأمهات مشغولات إلى ما لا نهاية .

كانت أمي تعطينا قطعة خيش وأربعة عيدان قَصيب وتقول لنا بكلّ جديّة» :اذهبوا احرسوا حقل الرمان من اللصوص «.

الأمر بدا عندنا مهمة عظيمة – الإمساك بلصّ يعني إنجاز يُحكى عنه.

بنينا خيمتنا من الخيش والقصب مثل خيمة الهنود الحمر ، رغم أن ظل الأشجار كان كافيًا، لكن الخيمة أعطتنا دورًا وجدية .

جلسنا في كمين صغير، نوزع الأدوار: أخي للمواجهة والضرب، وأنا للقرص – قرصاتي كانت مشهورة، حتى أن آثارها كانت تُثبت «الجريمة» لعدة أيام – وأختي كانت تطلق الصوت وتسرع لطلب النجدة في أول همسة غريبة .

كنا صامتين كأننا شرطة في كمين، نراقب القناة ,والاتجاهات الأربعة وننتظر صوت خطواتٍ غير مألوفة.

انتظرنا وقتًا طويلاً. لم يأتِ لصّ واحد. خاب أملنا مرارًا، وكنّا نعود إلى البيت بلا قصة بطولية نحكيها .

لكن كل يوم كان درسا صغيرًا لتعلمٍ جديد :

الصبر عند الجلوس بلا حدث، الانتباه لأدق الأصوات، التعاون في توزيع المهام، والقدرة على تحويل قطعة خيش بسيطة إلى عالم كامل من اللعب والجدّ.

من تلك «الحراسات» الصغيرة خرجت مجموعتنا بمخزون من المهارات الصغيرة التي رافقتنا طويلاً:

اليقظة والملاحظة – تعلمنا مراقبة التفاصيل البسيطة في البيئة حولنا.

التخطيط البسيط – كيف نوزع الأدوار وننظم كمينًا بوسائل محدودة.

العمل الجماعي – كل دور يكمل الآخر، ولا ننجح منفردين.

الصبر والتحمّل – الجلوس الطويل دون مَلل حتى لو لم يحدث شيء.

الإبداع في الموارد – تحويل خيش وقصب إلى خيمة ولعبة كاملة.

التواصل غير اللفظي – إشارات بسيطة ونظرات كافية للتنسيق.

روح المسؤوليّة –شعور فعلي بأننا نحمي شيئًا مهمًا.

الشجاعة الصغيرة – مواجهة الخوف من المجهول بجرأة طفولية.

ملاحظة الصوت -تمييز أصوات الريح والحيوان وأي طَرَف دخيل.

تحويل الخيبة إلى درس – لم نقبض على لصّ، لكننا ربحنا خبرة وذكريات.

ربما لم نصبح أبطالًا في تلك الحكايات، لكننا كبرنا نحمل معنا عالمًا صغيرًا من اللعب الجاد والمهارات البسيطة التي صنعتنا.

.

حكاية الدينار المفقود

كنا في الخامسة والسادسة من العمر، نعيش في مزرعة بعيدة عن صخب المدينة.

كانت نساء القرى القريبة يأتين كل يوم ليقطفن الخبيزة والسلق والعِلِت من أرضنا، ويرسلنها مع سيارات نقل الخضار إلى المدينة، ثم يعود السائق في اليوم التالي ومعه الثمن.

ذات عصرٍ، خطرت لنا فكرة عظيمة – أو هكذا ظننا.

قررنا أنا وأخي أن نجمع الخبيزة بأنفسنا، ونبيعها، لنحصل على دينارٍ كامل يكون لنا وحدنا.

انتشرنا بين الشجر، نلتقط كل نبتة خبيزة خضراء نصادفها؛ الصغيرة والكبيرة، الطرية والخشنة، حتى امتلأ الشوال.

سلمناه للسائق بكل فخر، وعدنا نحلم بدينارنا المنتظر، نعدّ في خيالنا كيف سننفقه.

لكن في الصباح، أخبرونا أن السائق تخلّص من الشوال قبل أن يغادر المزرعة.

كانت صدمتنا صادقة، وحزننا أكبر من أعمارنا.

ولكن إعترفنا بخطئنا، لقد جمعنا الخبيزة الصغيرة واليابسة والقاسية....

ابتسمنا بحياء، وشعرنا أننا كبرنا قليلاً.

في ذلك اليوم تعلّمنا أن كسب المال ليس بالأمر السهل، وأن العمل لا يُقدَّر بالحلم، بل بالإتقان.

في زيارة كوكب البنات..
عندما كنتُ طالبًا في الصف السادس، سمعتُ مثل غيري من طلاب القرية عن مدرسة البنات الإعدادية وكأنها كوكب آخر يدور في مدارٍ خاص. كنا نعرف عنها القليل □ فقط ما يصلنا من زملائنا جيران المدرسة الذين يشاهدون من فوق سطوح بيوتهم بعض الأنشطة والاحتفالات، فنغبطهم على تلك الإطلالة المميّزة.
وذات يوم، أعلنت المدرسة عن إقامة معرض شامل يضم وسائل تعليمية وأعمالًا فنية وعروض أزياء وأطعمة منزلية، وقالوا إن الدعوة "عامة ."
تردّدت كثيرًا، ثم غلبني الفضول. انتعلت حفاية البلاستيك وذهبت عصر أحد الأيام، وحيدًا، بخطواتٍ مترددة. كنت أتوقع أن يُطردني الحارس، أو يُتجاهل وجودي، أو يُسمح لي بالدخول دون أن يكلّف أحد نفسه النظر إليّ.
لكن المفاجأة كانت على الباب. أمام القاعة الأولى، قاعة الوسائل التعليمية، استقبلتني طالبة أكبر مني قليلًا بابتسامةٍ لطيفة واهتمامٍ لم أتوقعه. رحّبت بي وكأنني زائر مهم،

وبدأت تشرح لي ما هو معروض، ثم رافقتني من قاعةٍ إلى أخرى، حتى انتهيت من المعرض كلّه وأنا أعيش شعورًا غريبًا وجميلاً: شعورُ من كان خائفًا، فإذا به يجد نفسه موضع اهتمامٍ واحترامٍ في "كوكب البنات" الغامض.

مرّت السنين، وزرت بعد ذلك مئات المعارض، وأشرفت على عشرات منها، وقيّمت أفضلها بحكم عملي في التربية والتعليم. ومع كل تلك الخبرات، ومع كل ما لقيتُه من تقديرٍ رسمي ومهني، لم يتكرر ذلك الإحساس الذي شعرت به يومها □ إحساس طفلٍ اسمه خير شواهين، يُنظر إليه كإنسانٍ له قيمة، لا كموظفٍ يحمل لقبًا أو يؤدي خدمة.

ويا للمفارقة الجميلة... تلك الطالبة التي استقبلتني يومها أصبحت فيما بعد معلمة علوم، وكانت إحدى طالباتي لفترةٍ من الزمن. حاولتُ أن أرد لها الجميل بطريقتي الخاصة، عرفانًا بجميل تلك اللحظة الأولى التي علّمتني كيف يمكن لابتسامة اهتمامٍ واحدة أن تُبدّد خوف طفلٍ، وتزرع فيه الثقة مدى الحياة.

كنا بحدود ٤ و ٥ سنوات أنا وأخي .. بداية وعينا على الحياة
جاء ابن رجل يزرع مع أبي بعض الخضار في مساحات من مزرعتنا.. كان يكبرنا بعدة سنوات. كنا نعتبره ثقة .
ذهبنا لحقل الموز القريب .كان مليء بأعشاش البلابل .. كان هذا قبل استخدام المبيدات..
في أول عدة شجيرات وجدنا اعشاش فيها فراخ.. أخذ الفراخ ووضعها في علبة دواء كرتونية وأغلق عليها...
واستمر في وضع الفراخ فوق بعض ..
ثم جلسنا وأخرج الفراخ..
كانت ميتة..
صدمنا ..لم نعرف السبب
ثم
ذاك الولد استمر بالرسوب حتى صار في صفي.. وكان أكثر طالب يتعرض للضرب 😅
تعلمنا أن الثقة ليست بالعمر، بل بالوعي والرحمة، وأن الفضول بلا فهمٍ قد يتحول إلى أذى.
تعلمنا أن الحياة في المزرعة تُعلّم قبل المدرسة، وأنّ المخلوقات الصغيرة أمانة، لا وسيلة للتسلية.
وتعلمنا أيضًا أن الذين يستهينون بالحياة في صغرهم، قد يعيشونها لاحقًا بلا إحساسٍ عميق بها.
أما نحن، فكبرنا ونحن نحمل خوفًا جميلًا من إيذاء أي كائن، واحترامًا خفيًا لكل طائرٍ يغني فوق شجرةٍ من طفولتنا.

أنا أحب حلوى السمسمية والفستقية ولكن.. الذي في السوق ليس ما تعودت عليه في صغري

كانوا جيراننا يزرعوا الفستق(الفستق السوداني) والسمسم.. ولهذا كانت هذه الحلويات تصنع في البيت من حبوب طازجة بلدية وعصير ليمون من عندنا وسكر..

وحتى عندما ينفذ رصيدنا من الفستق ..كنت أذهب لأرض جيراننا وهم اقاربنا وابحث في مكان الحقل وأجمع سريعا ما يملأ الدلو الذي أحمله .

حتى مصانع الحلويات كانت تشتري منه، وليس مستورد

كان هناك رجلين يملكان مصنعا للحلويات في اربد ..كانا صديقين لأبي.. يأتون للغور ويبيتون عندنا ، ويجمعوا كل ما يشتروه من المزارعين عندنا، ثم يشحنوه مرة واحدة وهم لم يبخلوا علينا بحلوياتهم، ويكرمون من يزورهم

هذه الأيام أكثر الحبوب من امريكا الجنوبية ..تصل فاقدة للطعم والفائدة.

في ليلة طلبنا من اخينا الأكبر أن يمسك لنا عصافير دويري تنام في شقوق إسطبل الحيوانات.. أخذ كشاف يدوي وأمسك العصافير ..كنا بعمر ٥ و ٦ سنوات في الصباح امسكناها. .أحضر اخي الأصغر خيط ناعم وقوي كانت تلف به علب الحلويات.. وأراد ربط رجل العصفور حتى يطير وهو يمسك بخيطه..

قلت له: إذا ربطت الرجل العارية وأطلقت العصفور قد تنقطع . وأكيد ستتأذى.

لف ورقة تحت الخيط ولا تشده كثيرا..

عندما أطلق العصفور انزلقت رجله وهرب..

وعلقت أنا

إلى لقاء مع كتاب آخر يا أعزاءي

المؤلف